العدد الثانى

السنة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
مـ	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	وللطلاب
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

ربيع الثانى سنة ١٣٧١ (الطبعة الثانية) يناير سنة ١٩٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد فقد أصدرنا العدد الأول من « المسلمون » وسط طوفان من المشاغل العامة والخاصة التى يعرفها أصدقاؤنا القريبون . . . وقد كنت أقدّر أن طغيان تلك المشاغل على الوقت والعقل والنفس سيقصر بى عن إخراجه على النحو الذى يرضى رغبات حضرات القراء فى غزارة المادة وسمو المعنى وأناقة الطبع ، ولكن ما كاد العدد يصل إلى حضراتهم حتى تلقينا سيلا من رسائلهم وبرقياتهم وكثيراً من زوارهم ، معربين عن ارتياحهم وثنائهم وتقديرهم لما لمسوا من جهود ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

وإن من سبل التجويد والإحسان أن نضاعف الجهد والعناية ، وأن ننتفع بالتجربة ، وأن نتحرى السير نحو الكمال بخطوات ثابتة مطردة ، وأن نمحص ملاحظات حضرات القراء ومقترحاتهم للاهتداء بما فيها من توجيه حسن ، وهو ما عقدنا عليه العزم إن شاء الله ، وأرجو أن يلمس قراؤنا الأعزاء آثاره فى هذا العدد والأعداد القادمة ، والله المستعان .

* * *

العدد الثانى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد

السنة الأولى

الاشتراكات

١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	وللطلاب
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

ربيع الثانى سنة ١٣٧١ (الطبعة الثانية) يناير سنة ١٩٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد فقد أصدرنا العدد الأول من « المسلمون » وسط طوفان من المشاغل العامة والخاصة التى يعرفها أصدقاؤنا القريبون . . . وقد كنت أقدّر أن طغيان تلك المشاغل على الوقت والعقل والنفس سيقصر بى عن إخراجه على النحو الذى يرضى رغبات حضرات القراء فى غزارة المادة وسمو المعنى وأناقة الطبع ، ولكن ما كاد العدد يصل إلى حضراتهم حتى تلقينا سيلا من رسائلهم وبرقياتهم وكثيراً من زوارهم ، معربين عن ارتياحهم وثنائهم وتقديرهم لما لمسوا من جهود ، والحمد لله رب العالمين .

***

وإن من سبل التجويد والإحسان أن نضاعف الجهد والعناية ، وأن ننتفع بالتجربة ، وأن نتحرى السير نحو الكمال بخطوات ثابتة مطردة ، وأن نمحص ملاحظات حضرات القراء ومقترحاتهم للاهتداء بما فيها من توجيه حسن ، وهو ما عقدنا عليه العزم إن شاء الله ، وأرجو أن يلمس قراؤنا الأعزاء آثاره فى هذا العدد والأعداد القادمة ، والله المستعان .

***

وقد سأل بعض حضرات القراء : أين باب التفسير ؟

وهو فى ذلك متأثر بما اعتادت الصحف والمجلات الدينية أن تترسمه من إفراد باب خاص لتفسير القرآن الكريم . . والواقع أننا استشرنا الكثير من أهل الفقه والدراية فكان نظرهم أن مفسر « المسلمون » لن يأتى فى تفسيره بشىء جديد يخرج عما جاءت به كتب التفسير القديمة والحديثة وما أكثرها بين أيدى الناس ؛ ورأوا — ورأينا معهم — أن حاجة الناس إلى علاج مشاكل العصر على ضوء القرآن الكريم أشد من حاجتهم إلى تكرار ما قاله المفسرون من قبل .

وقد عرض القرآن لهذه المشاكل أو المسائل فى شتى سوره الكريمة بحيث يستطيع الباحث أن يجد فى الآيات التى وردت فى موضوع معين مادة قيمة يواجه بها حاجة المجتمع إلى المعرفة والهداية والمنهاج الواضح السديد ، وذلك بلا شك من أفضل أبواب التفسير . ولعل القارىء يلمس شيئاً من ذلك فى باب « قصص القرآن » ، وفى مقال : « من دستور تكافلنا الاجتماعى » وفى غيرها من أبواب المجلة . . . على أننا سنعنى — إن شاء الله — فيما نستقبل من الأيام بإبراز هذا اللون والإكثار منه على نحو يحقق المقصود . .

وفى النية إيراد قصة جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نمط من التفسير والسيرة نبدؤها منذ نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم بباكورة القرآن الكريم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، ونمضى مع الزمن فنفسر ما تتابع نزوله من الوحى على ضوء ما كان يصطرع فى البيئة من عوامل عقلية ونفسية واجتماعية ، ملتزمين النسق التاريخى للحوادث ونزول الوحى . وفى هذا اللون من البحث — عدا إفادة التاريخ والتفسير القوى الواضح — عرض لصور جهاده صلى الله عليه وسلم فى مراحله المختلفة ؛ فلعل مجاهدى هذا العصر ودعاته يجدون فيها قوة لإيمانهم ، ونوراً لبصائرهم ، ونهضة لعزائمهم ، ومنهاجاً قويماً لتثبيت العقائد وإعداد الرجال ومجاهدة الأعداء وبناء المجتمع على أثبت الدعائم وأقوى الأسس .

* * *

وقد كتب إلينا الكثيرون يطلبون أن نعرض بعض سير الرجال الذين عرفوا بمجاهدة النفس ومراقبة الله والخوف منه والإقبال على طاعته وحسن عبادته ؛ فهؤلاء هم الذين تمثلوا تعاليم الإسلام فسرى نورها فى قلوبهم وعقولهم ، فمثلوها للناس وجهة صادقة ، وسيرة طيبة ، ومعاملة حسنة ، وقدوة تنهض إلى معالى الأمور . . وإننا — ونحن فى مستهل نهضة إسلامية شاملة — نحتاج إلى تربية النفوس ، وتهذيب الضمائر ،

وإصلاح أخلاق الرجال والسمو بهممهم وأعمالهم إلى ابتغاء رضوان الله والتماس المنازل وحسن الذكر عنده وحده سبحانه ؛ فإنه لم يسقط من منازل مجدنا العزيز إلا سقوط الهمم إلى مستوى الأهواء الشخصية والتنافس الوضيع على شهوات الجاه وزينة الحياة الدنيا .

وهو كلام حق ، فإن حاجة النهضة إلى تزكية النفوس بالقدوة الحسنة لا تقل عن حاجتها إلى تمحيص حقائق الإسلام وعرض مناهجه الاجتماعية المختلفة . . . وقد استجبنا لهذه الرغبة الحبيبة ، وعرضنا فى هذا العدد سيرة رجل لم يعرف فى التاريخ بما ولى من مناصب ، أو كسب من معارك الغزو ، أو اختط من مذاهب العلم ، أو حاز من المال والعقار ، وإنما عرف فى الصالحين والمجاهدين بإيمانه بالله والدار الآخرة إيماناً نصب له فى ذهنه معالم القيامة وما بعدها حية نابضة ، فنبض بها قلبه وجاش بها حسه ، فعاد على نفسه بالمحاسبة والمراقبة والتهذيب ، وعاش فى الناس يهز وجدانهم بما قام فى ذهنه وعصبه من هيئة الجنة والنار والقيامة ... ونحن نرجو بهذا أن يذكر المسلمون آخرتهم ؛ فإن الإيمان بها أوشك أن يمحى من أذهانهم وقلوبهم ، إذ ضعف فيهم الوازع وانحلت العزيمة وشاعت الفرقة والتنافس على العرض الزائل ... نريد ذلك الإيمان الصادق الحار الذى يُرى الناس عرش ربهم بارزاً ، فيقمعهم فى قبضة قهره ، ويملى عليهم مناهج المعيشة العامة والخاصة التى تتسق وإياه .

والله نسأل أن يكتب لنا صدق معرفته ، وأن يوفقنا إلى خير مايحب من خدمة كتابه وتأييد كلمته ، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل . . آمين .

سعيد رمضان

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل بقلم الأستاذ البهى الخولى

(٢)

الإنسان والشيطان :

« ولقد خلقنا الإنسانَ مِنْ صلصال مِن حمإٍ مسنون ، والجانّ خلقناهُ مِنْ قبل مِن نار السموم [(١)] » .

لا نريد بالتكوين هنا تركيب الجسم وتصويره من لحم ودم وعظام وجوارح وتقاسيم ، ولكنا نعنى الخطوط الجامعة التى فطر الله عليها هذا الكائن الممتاز فى صفات خلقه ، ومشاعره وإدراكه ، وعقله المعجز الخطير ... نعنى ذلك التقويم الروحى المادى الذى سوى عليه الإنسان ، فكان كما أخبر الله سبحانه فى قسمه : « لقدْ خلقنا الإنسانَ فِى أحسن تقويم » . أو بعبارة أقرب إلى فهمنا الحاضر ، نريد معنى « التصميم » الذى يذكر فى لغة المهندسين عندنا ويراد به الخطوط التى يقام عليها بناء بيت أو مصنع أو نحوهما ليؤدى الغرض منه على أحسن حال .

ولقد كان الإنسان فى علم الله القديم — قبل أن يخلق — معنى جامعاً للأوصاف التى يتألف منها كيانه المادى والروحى ، أو كان « تصميماً » — ولله المثل الأعلى — ينتظر الوقت الذى يظهره الله فيه إلى حيز الحس والمشاهدة .

ولقد خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا هو بشر سوى يمثل الأوصاف التى سبقت له فى علمه سبحانه .

ولقد قلنا فى المقال السابق : إن طينة الإنسان إذا أمدته بشىء فإنما تمده بخصائص الصلصال والحمأ المسنون ؛ أما صفات القوة والخير والنور فليس فى طبيعتها أن تمده بشىء منها ، فهى فى ذلك كالأرض الميتة . . فإذا رؤى على الإنسان أثر من هذه الصفات فهو من خصائص السر الذى نفخه الله فيه من روحه .

---

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ .

فالإنسان بإزاء الحق والخير ناحيتان : إحداهما سلبية ميتة وهى طبيعة الطين ، والأخرى إيجابية حية وهى طبيعة الروح ، فإذا أُمدت الأولى بمدد من الأخرى حيث وربت وأثمرت ما شاء الله من فضائل : « كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ والله بما تعملون بصير » .

هذا هو « تصميم » الإنسان أو التقويم الإلهى الذى سويت عليه فطرته ؛ ولكن هل فرغنا من كل ما يتعلق « بالتكوين » أو يتصل به ؟

إنا لنعوذ بمقام الله نسأله تعظيم شأنه حتى لا نكون ممن يبتذلون له حرمة . . أقول ذلك حين خطر لى أن أستعين على تقريب ما أنا بصدده ، بضرب مثل : فإن المهندس الذى يضع « تصميم » قصر من القصور ، لا يقتصر فى تقدير التصميم على ما يجب أن يكون فى هذا القصر من حجر النوم ، والطعام والضيافة ، ومرافق المطبخ ودورات المياه ونحوها ، بل يدخل فى حسابه حتماً صلة هذا القصر بما يجاوره من طرق وشوارع وجيران ، ومناظر طبيعية ، وإقبال الرياح وإدبارها ، ومساقط النور ، ومداخل الشمس ونحو ذلك .

أقول — ولله المثل الأعلى — : إن الإنسان لم يخلق ليعيش فى هذه الأرض وحده ، بل ليعيش معه فيها ويجاوره فى أنحائها ما شاء الله من جن وشياطين وغيرها من كائنات غير منظورة . . . ولو قدر له أن يعيش محجوباً عن هؤلاء لا يتصلون به ولا يتصل بهم ، لكان شأنه شأن البهيمة المطموسة التى لا يتصور أن تتصل فى حياتها الوجدانية بملائكة أو شياطين ، ولصُمم تصميم القصر المصمت : لا نوافذ له ولا مداخل ولا أبواب . . ولكن الله سبحانه قدر له أن يتصل بهذه الكائنات الغيبية ، وأن يطل عليها من خلال حيوانيته أو منافذ وجوده المادى ، فقدر لطبعه تلك المرونة التى تجعله واسع الآفاق يتصل بظواهر هذا الوجود وخوافيه ، ويتفاعل مع مادة هذه الأرض وما خفى من مردتها وشياطينها . . . كان ذلك كله تقدير الله للانسان ، ففطره على ما قدر له ، وأهبطه إلى الأرض أصلح ما يكون للاتصال بكل ما فيها : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون »(١)

ولما كنا بصدد ما رسمت لنا القصة من صفات الإنسان ، فإن الله سبحانه رسم لنا كذلك صفات ذلك الشيطان الذى قدر لنا أن نهبط معه إلى هذه الأرض ، فقال سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسانَ من صلصال من حمإ مسنون ، والجانَّ خلقناهُ من قبل من نارِ

---

(١) الأعراف : ٢٤ ، ٢٥ .

السموم » . فأنت ترى أن الله سبحانه قرن فى هاتين الآيتين بين الحمأ المسنون الذى خلق منه الإنسان وبين نار السموم التى خلق منها الشيطان .

ولا شك أن هذا الاقتران ليس محض مصادفة ، ولا هو لتقرير حكم أو إفادة خبر ، بل هو تقرير للجوهر الذى خلق منه ذلك العدو ، لنستقبل أمرنا معه على هدى وبصيرة .

* * *

ولقد سبقت الإشارة — فى المقال السابق — إلى بعض خصائص الصلصال والحمأ المسنون ... أما نار السموم التى خُلِقَ منها الشيطان ، فلم نجد فيما قال المفسرون عنها ما يشفى غلة من يريد معرفة حقيقتها ؛ فالسموم عندهم هى الريح الحارة بالنهار ، وقيل بالليل ، وقيل الحرور والسموم بالليل والنهار إلى آخر ما هنالك مما لا طائل وراءه .

والحق إن الجن كائنات لا تدركها الأبصار ، ولا تقع فى مستوى حواسنا العادية : « إنه يراكم هو وقبيلُه مِنْ حيث لا تَرَونهم [1] » . ومن التكلف الذى لا يفضى إلى شىء أن نحاول معرفة كنه النار التى خلقت منها تلك الكائنات ، فهى قطعاً ليست كالنار التى نعرف ، وليست كأى نار يمكن تصور هيئتها ، فتلك أمور سمعية يتوقف الإيمان بها على الخبر الصادق وحده الذى نزل به الوحى من عند الله ، أو صح عن الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم .

والذى يهمنا من هذه النار ليس هو صورتها ، ولا العناصر التى تؤلفها ، بل خصائصها وأسرار صفاتها . . . ولقد أوردنا فى المقال السابق : أن الرسول عليه السلام حين تكلم عن خلق الإنسان من تراب ، صرف أبصارنا عن هيئة الطين وصورته إلى ما يمكن أن يستمد من خصائصه ومعانى صفاته ؛ فنحن على هذا لسنا بصدد البحث فى تركيب الصور والأشكال ، بل بصدد الصفات التى يمكن أن يستكن سرها وراء ذلك !

وعلى هذا فماذا يمكن أن نعرفه من صفات نار السموم ؟

لقد قرر القرآن الكريم من هذه الصفات الكبر ، وهو وصف يرى فى نزوع النار إلى الاستطالة والاستعلاء وإرادة الارتفاع . وإنا لنقرأ فى القصة الكريمة أن الشيطان حضره ذلك الطبع حين أُمر بالسجود لآدم فأبى أن يكون مع الساجدين ، فطرده الله من رحمته : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها [2] » .

---

(١) الأعراف : ٢٧ .
(٢) الأعراف : ١٣ .

ولقد يدق على كثير من الناس معنى الكبر فيذهبون فى فهمه مذاهب شتى ، فأراحنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ محَّص لنا حقيقته وأعلنها سوية واضحة : « الكبر بطر الحق ، وغمط الناس [1] » .

وبطر الحق رده وعدم الإذعان له .

وغمط الناس ازدراؤهم وانتقاص أقدارهم .

فالكبر على هذا هو الأنانية الغليظة التى تريد أن تكون إلهاً فى الأرض لا يخضع لحق ، وطاغية فى الناس يضيق أن يؤثر أحدهم بكرامة أو خير ، إذ يرى نفسه أولى بكل ذلك .

وكلتا شعبتى الكبر بارزة فى قصة امتناع إبليس من السجود لآدم : « قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين » .

فقد توجه أمر الله إليه بالسجود — وأمره سبحانه حق — ولكنه رد هذا الحق ورفض الإذعان له مُعلناً فضله على آدم واحتقاره لشأنه : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

ولسنا نجد صفة تسود بها الفوضى ، ويضطرب لها المجتمع ، وتتقطع معها أواصر التواد بين الناس كصفة الكبر ، تلك التى تطلق صاحبها فتنة فى الأرض لا يخضع لنظام ولا يقر بحق من الحقوق إلا أن يوافق هواه أو يجارى مصلحته : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين [2] » .

ومن صفات النار التى يمكن إسنادها إلى الشيطان كذلك ، ما ذكره القرطبى فى تفسيره قال : قالت الحكماء : « . . . ومن جوهر النار : الخفة والطيش والحدة والاضطراب » .

وهى صفات يمكن استنباطها بمجرد المشاهدة والمراس ، ويجمعها لك معنى العجلة والغضب ، ويستأنس لها بما رواه أبو يعلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان » . قال الحافظ المنذرى : ورواته رواة الصحيح . . .

وبما رواه أبو داود : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار » .

فالتأنى ليس معناه البطء والتسويف عن مبادرة الباقيات الصالحات ، إنما هو النظرة الفاحصة البعيدة التى تريك وجه الأمر وعواقبه ؛ أما العجلة فهى من قصور النظر وسقوط

---

(١) رواه مسلم والترمذى . (٢) النور : ٤٨ — ٤٩ .

الهمة عن أن تتعلق بالغايات الكريمة البعيدة ، اكتفاء بما يبدو من وجه الأمر وظاهره لأول وهلة .

ولعل المتأمل فى قصة امتناع إبليس من السجود لآدم يرى أثر العجلة والغضب فى عصيانه أمر الله ، فإن طبع الكبر ما كاد يحضره ويتحرك فى نفسه حتى حضره طبع الطيش والخفة ، فعجل إلى اتخاذ هذا الموقف من الله دون أن يجد فى طبعه مسكة من الحلم والروية ؛ وأعماه غضبه الذى سارع إليه عن أن يرى عاقبة أمره ، وينظر فيما يحل به ، وهو الذى يعرف من قهر الله وبطشه ما يعرف .

* * *

شياطين الإنس :

تلك ثلاثة من صفات الشيطان الأصيلة كانت مستكنة فى طبعه فلم يظهر أثرها إلا حين نفخ الله سر الحق والخير فى آدم وجعله أهلا للتكرمة والتفضيل .

ولقد قلنا إننا فى قصة التكوين بإزاء تقرير صفات مجردة ؛ فالشيطان ليس شراً على نفسه وعلى غيره إلا بهذه الصفات ، فحيثما وجدنا هذه الصفات فى تراب أو نار . . . فى إنس أو جن فنحن بإزاء شيطان .. ولهذا أمرنا فى القرآن الكريم أن نستعيذ من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى الصدور من الجنة والناس . . . بل لقد جاء القول صريحاً فى القرآن الكريم بأن من البشر شياطين تعادى الحق الذى جاءت به الأنبياء كما تعاديه شياطين الجن : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا [1] » .

ولشياطين الإنس فى إضلال المجتمع وفتنته وتزيين الشر له أساليب تختلف باختلاف ما لكل من ثقافة أو بيئة أو مهنة أو جاه ، ولكنها تهدف كلها إلى غاية واحدة هى معاندة الحق ورده ومحاولة إطفاء نوره ؛ ولن تخطىء فى هؤلاء الشياطين صفات الكبر والعجلة والضيق بدعوة الدعاة وإعلان الغضب عليهم والثورة بهم .

وإنك لتجد الكبر يذهب بأحد هؤلاء إلى حد الاشمئزاز من الله نفسه دون الاكتفاء برد الرسالة ، والإعراض عما جاءهم من الحق ؛ ولقد ابتلينا فى مجتمعنا هذا بمن إذا حدثته عن الله رأى نفسه فوق ذلك وأنغض إليك رأسه ، فإذا حدثته عما قال فلان أو فلان من فلاسفة الفرنجة انبسط إليك وأقبلت أساريره نحوك بالبشر لما تقول ؛ وذلك

(١) سوره الأنعام : ١١٢ .

ديدنهم فى كل عصر : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون[١] »

فإذا نظرنا إلى طبع الأنانية الذى غلب على الشيطان فملأه بالحقد على آدم ودفعه إلى أن يضمر له عداوة الأبد ، وجدنا أن هذا الطبع نفسه هو الذى يدفع شياطين الإنس إلى معاداة الرسل والأنبياء ودعاة الإصلاح فى كل عصر ، ذلك أنهم يدركون ماتهدف إليه الدعوة من تغيير أوضاع المجتمع ، وهى أوضاع حسنت بها حالهم واتسقت منافعهم ، وقام لهم بها جاه وسلطان ، فلا يتصور من أحدهم أن يستكين لها حتى تقضى عليه ، بل لا بد من منازلتها بكل ما يملك من قوة ؛ ولا يتصور منه حينئذ أن يكون مستعداً للأخذ والعطاء والإصغاء لتبين وجه الحق فيما يقال . فإن العقدة لديهم ليست فى افتقارهم إلى وضوح البرهان ونصاعة الحجة ، فلعل وضوح البرهان مما يزيد فزعهم ، ويضاعف طاقات المقاومة فى نفوسهم ، بل المسألة بالنسبة إليهم مسألة حياة أو موت ، حياة ترف وجاه ومنفعة ارتبطت بهذه الأوضاع ؛ أوموت تفلت به منهم أسباب السيطرة والمنفعة . . فإذا ثاروا فى وجه دعاة الإصلاح يكموهم عن الكلام ويسلبونهم حرية الدعوة والبلاغ ؛ فهى سنة أمثالهم منذ كان فى الأرض طائفة تنتفع من الأوضاع الفاسدة « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به[٢] . . . » بل إنهم إذا ثاروا بهم يشوهون قصدهم ويستعدون ذوى السلطان عليهم فهى كذلك سنة أمثالهم فى كل عصر : « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون[٣] » ، « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد[٤] » .

حرب صفات اصفات :

وبعد فإنا لم نفرغ من كل خصائص الشيطان وطبيعة النـــار التى خلق منها ، فمن خصائص النار الإحراق والإهلاك والإتلاف . . ولسنا بحاجة فى تعرف ذلك إلى الاستئناس بأثر من الكتاب أو السنة فهو من خصائص كل نار نعرف .

غير أنه إحراق لا ينال أجسامنا ولا الظاهر من صورنا وماديانتا ، بل هو مسلط

---

(١) سورة الزمر ٤٥
(٢) سورة إبراهيم : ٩ .
(٣) الأعراف : ١٢٧
(٤) غافر : ٢٦ .

على حقيقة الإنسان وما أنشأه الإيمان فى صدره من دواعى الخير وعزائم الرشد ، وهى المعيار الذى تتقوم به درجته « فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

فإذا أتى الشيطان على تلك القلوب والأعمال ، فقد أتى على حقيقة الإنسان ، وأباد أنفس ما يملك ، فجرد باطنه من كل خير ، ولم يترك له إلا صورة اللحم والدم ، وهى لا تزن فى ميزان الحق مثقال ذرة .

ولقد قررنا فى غير موضع أن السر الذى نفخ فى الإنسان من روح الله هو الجانب الحى فيه ، وهو الذى يمد طبيعته الترابية السلبية بأسرار القوة والإيجاب ، فإذا بها قادرة على إظهار أكمل الفضائل وأحسن الصفات . هذا الغرس الطيب وهذا النور فى الطينة الظلماء هو الهدف الذى يكيد له الشيطان، وهو ما يهيج فيه أعاصير الشر والحقد والغضب .

ولقد عرضنا فى صدر هذا الكلام أن القرآن الكريم شبه ما يصير إليه حال الإنسان إذا آمن بربه وابتغى رضاه بصالح العمل بأنه « جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل » . .

ومما له مغزى عميق يتصل بموضوعنا الذى نعرض له ، أنه ذكر عقب هذا التشبيه صورة أخرى لما يمكن أن يحدثه الشيطان فى إتلاف تلك الجنة « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب . » إلى « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون[1] » .

ولسنا الآن بصدد شرح تلك الحقائق النفيسة فى كتاب الله ، لأنها أدخل فى باب التطبيق العملى ، ونحن فى مقام التقرير النظرى لخصائص الأشياء ، ولعل مما يؤنس إيمانك فى هذا المقام أن نسوق لك ما جاء فى صحيح البخارى متعلقاً بهذا المعنى : « قال عمر رضى الله عنه يوماً لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : (فيم ترون هذه الآية نزلت : أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل . . الآية) قالوا : الله أعلم . فغضب عمر وقال قولوا نعلم أو لا نعلم .. فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . فقال عمر : أى عمل ؟ . قال ابن عباس : لِعَمَلِ رجل عمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصى حتى أحرق عمله » .

---

(١) البقرة : ٢٦٦ .

وإذا كان الشيطان يحرق ويدمر ما ينشئه الإيمان فى قلب ابن آدم من مظاهر الحياة والعمران الروحى ، فإن تلك الصفات البغيضة « الـكبر ، والعجلة ، والغضب » هى ألسنته النارية التى يحتال لتسريبها إلى نفوس الناس ، فأيما صفة منها استطاع أن يقذفها فى روع أحد محقت ما فيه من خير وكان لها أثرها الاجتماعى السيىء .

فالحرب بين الشيطان والإنسان حرب صفات لصفات ، وقد ذكر لنا الإسلام من ملامح صفات الشيطان ما يكفى لمعرفتها والنجاة منها .

فقال لنا عن الـكبر : « إنه بطر الحق ، وغمط الناس » فمن أنس من نفسه شيئاً من ذلك ففيه شعبة من خصال إبليس .

وقال عن الغضب وطريقة العصمة منه : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

أما العجلة فعلاجها اتباع ما جاء به الإسلام قولا وعملا وأمراً ونهياً ، وسلباً وإيجاباً فإنه لا عجلة فى اتباع الحق الواضح ... فإذا كنا بإزاء شأن ليس فيه نص إسلامى قطعى الثبوت والدلالة استفتينا القلب الذى يرجو لقاء الله والدار الآخرة ، فإن استشعار القلب للقاء الله يرى صاحبه موقع كل عمل فى الآخرة ، أى يمد نظرته العاجلة إلى ما وراء أفقه الدنيوى ، وهذا فارق ما بين العجلة والتأنى .

وبعد فهذه بعض صفات الشيطان ، ولعل ما جلونا منها يبصرنا بأمر هـذا العدو ويعيننا على الظفر به فى معركة الخير والشر الأزلية . والله المستعان .

القرآن

حُجة على الملحِد ، و بيان للموحِّد ، قائم بالحلال المنزَّل ، والحرام المفصَّل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل ، وإمام تقام به الفروض والنوافل ، وشهاب لا يطفأ نوره ، وبحر لا يدرك غوره ، ومعقِل يمنع من الهلـكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار ؟

الجاحظ

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

(٢)

١١ — ذكرنا فى المقال السابق بإيجاز وجوه إعجاز القرآن مبينين أن ما اشتمل عليه من أحكام إذا ووزن بما كان عليه الناس وقت نزول القرآن كان وحده دليلا على أن القرآن من عند الله ؛ بل إن أحكامه لا تزال جديدة إذا ووزنت بما عليه الناس اليوم ، إذ بالموازنة يتبين أنها سبقت سبقاً بعيداً ، وأن الناس مهما تتفتق عقولهم عن شرائع قد وصلوا إليها بتجارب قضائية ، وتجارب عملية ؛ وبالاستعانة بثمرات العقول ، وما أنتجته الفلسفة والعلم ، فلن يصلوا إلى ما جاء على لسان النبى الأمى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عمل الإنسان مهما تكن قدرته ناقص ، والكمال لله وحده ، وفى أى جانب اخترت للموازنة تنتهى بالحكم الجازم القاطع بسبق النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدم بلوغ أحد ما قرره وثبته منذ ثلاثة عشر قرناً ، إلا أن يقبسوا من نوره ، ويأخذوا من هديه ، وينهلوا من معينه ، ففيه الحكمة ، وفصل الخطاب .

١٢ — ولنختر الموازنة فى بعض أحكام الأسرة ؛ فإن أحكام الأسرة التى اشتمل عليها القرآن ، وبينها النبى صلى الله عليه وسلم موضع هجوم الهاجمين ، وهدف لسهام النقد ، وسنبين أن تلك السهام مردودة فى نحورهم ، وسنلوى مقدم الدليل الذى ساقوه على نتيجتهم ، ونبين منه للباحث المنصف أن أحكام الأسرة فى القرآن دليل إعجازه ، وأن العقل البشرى لم يصل إلى ما يقاربها .

لقد عابوا على شريعة القرآن إباحتها الطلاق ، وإباحتها تعدد الزوجات ، وشنعوا فى المحلل وهو ليس من القرآن فى شىء ؛ وقد ثارت عجاجة هذه المسائل فى آخر القرن الماضى وصدر هذا القرن ؛ وخاضت فيها الأقلام ؛ وأخذ الذين يحاولون تقريب الإسلام من شرائع الغرب ، يقترحون وضع القيود أمام التعدد . بل استرسلوا فأرادوا وضع القيود أمام الطلاق ، وعقوبة المطلقين بالزج فى غياهب السجن .

١٣ — وإن التاريخ كتاب العبر ، وسفر المعتبر يرينا أن الهجوم على الإسلام من ناحية الطلاق وتعدد الزوجات وما يتصل بذلك ليس وليد ذلك العصر ، بل إنه يتغلغل فى القدم إلى العصر الأموى ، وإذا رجعنا إلى الوراء نتعرف المصدر الذى كان يبث ذلك ، وجدنا رجلا اسمه يوحنا الدمشقى كان فى خدمة الأمويين هو وأبوه ، واستمر فى خدمتهم إلى عهد هشام بن عبد الملك ، كان يؤلمه أن يدخل النصارى فى الإسلام أفواجا أفواجا ؛ فكان يجتهد فى أن يسلّح النصارى باعتراضات يعترضون بها على الإسلام ؛ ليشككوا العربى فى دينه ؛ وليقووا حجة النصرانى ، فيستطيع التغلب على العربى . وقد جاء فى كتاب تراث الإسلام عن يوحنا هذا أنه كان يقول : « إذا سألك العربى ماتقول فى المسيح ، فقل إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم ، بم سمى المسيح فى القرآن ؛ وليرفض أن يتكلم فى شىء حتى يجيب المسلم ، فإنه سيضطر إلى أن يقول إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فإذا أجاب بذلك فاسأله عن كلمة الله وروحه أمخلوقة أم غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأنه كان ، ولم تكن له كلمة ولا روح ، فإن قلت ذلك فسيفحم العربى لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين » .

ومع هذا التلقين الذى يحاول به التشكيك فى العقيدة كان يلقنهم أيضاً أن يتكلموا فى تعدد الزوجات ، وفى إباحة الطلاق ثم يثير فيهم أكاذيب حول النبي صلى الله عليه وسلم فيخترع قصة عشق النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش التى كانت وليدة عقل ذلك الكاذب الأفاق(١) .

١٤ — ولقد كان جزاء ذلك الصنيع عند النصارى أن اعتبروا صاحبه قديساً ؛ وإذا كان الاعتراض على الإسلام متحداً بين يوحنا ، وأهل ذلك العصر ؛ فلابد أن يكون المصدر واحداً ؛ ولكننا لانتتبع الأصول لنعرف الفروع ، ولا نتتبع الجذور لنعرف نوع الثمار ، بل إننا قد اعترانا نوع من الضعف النفسى عند بعض الذين يسمّون الخاصة ؛ فحسبوا أن كل ماعند الأوروبيين سائغ فرات ، وكل ماعندنا ملح أجاج ، وليسوا فى حاجة إلى دس أمثال يوحنا الدمشقى ؛ بل إنه يكفى أن يكون الأوروبيون لاتسيغ شريعتهم التعدد ، حتى يكون ذلك المنع سائغاً مقبولا ، وحتى يكون ماعند المسلمين مقيتاً مرذولا .

---

(١) راجع هذا كله فى كتاب تراث الإسلام ، وكتاب المخطوطات العربية للأب لويس شيخو ، وقد ذكر هذا أيضاً الجاحظ فى رسالة النصارى (مجموعة رسائل طبعها المستشرق فنكل) .

وهكذا يفعل الاستخذاء فى نفوس الضعفاء ؛ يستقبحون كل ما بأيديهم ، ويستحسنون كل ما بأيدى الأقوياء .

١٥ — ونحن إذا حاولنا أن نبين فضل الشريعة فى الزواج والطلاق ، فإنا لا نرد على المسلمين الذين رددوا تلك الأقوال عن غير بينة ، بل إنا نرد على الذين أثاروها بين المسلمين ، ولم يجدوا مرتعاً خصيباً من أقدم العصور إلا فى أذهان رجال فى عصرنا ، ونحن نتكلم فى هذه الأمور الثلاثة : قصة زيد وزينب ، ونظام التبنى والنسب ، وتعدد الزوجات والطلاق .

ونبدأ بقصة زيد وزينب والتبنى ؛ لأن كثيرين خدعوا بالكذب الذى أثير حولها ؛ ووجدنا فى مصر كاتباً كبيراً كتب فى السيرة ، وجعل لها عنواناً قائماً بذاته ، سماه عشق النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعض كتب التفسير راج فيها ذلك الدس الخبيث ، ولأن إثارة القول فى هذه القصة يجرنا إلى الكلام فى خاصة اختصت بها الشريعة الإسلامية فى النسب ؛ وهى أن التبنى لا يوجد نسباً ، ولا يثبت حقوقاً ، ولا يلزم بواجبات ، وذلك غير ما كان عند الرومان ، ولأن تلك القصة تكشف عن خلق النبى الكريم .

١٦ — كان لمحمد مولى هو زيد بن حارثة ؛ وقد اختطف من قبيلته ، وبيع بَيْعَ العبيد ، وآل أمره إلى سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فحدب عليه وأكرمه ؛ وجعله منه بمنزلة الولد ، يرفق به رفق الأب بولده ؛ فلما عثر عليه أهله ، وأرادوا أن يفتدوه بثمنه أو بأكثر رضى المقام مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فأعتقه عليه السلام ، وألحقه بنسبه وتبناه ، وكان ذلك شرعا مقرراً عند العرب ؛ وعرف بين الناس أنه زيد ابن محمد ؛ فكان قرشياً هاشمياً بهذا الإلحاق ، وتزوج زينب بنت جحش على أنه زيد ابن محمد ، لأنه كفء لها بهذا النسب القانونى عندهم . ولكن الإسلام منع التبنى ، وقال الله سبحانه فى أول سورة الأحزاب : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ؛ والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » .

ثم أردف هذا بقوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله ، وخاتم النبيين » ، عندئذ بدا الصريح عن الرغوة وتبين أن زيداً ليس ابن محمد ، ولكنه ابن حارثة ، وتبين أنه ليس قرشيا ، ثم تبين أنه ليس كفئاً لهذه الزوجة المعتزة بنسبها المفخورة بقدمها ؛ فتململت به ؛ وتململ بها لكبريائها واعتزازها بنسبها فكان لا بد أن يفترقا ؛ لتعذر العشرة الحسنة بينهما .

ولقد كان التبنى نظاماً مقرراً ثابتاً فى النفس العربية ؛ مشهوراً متغلغلة فكرته فى نفوس العرب ، كما كان الشأن عند مجاوريهم الرومان الذين كانوا ينظمون أحكامه ويرتبون حقوقه وواجباته ؛ وكان لا بد لاقتلاعه من النفس العربية — من قارعة مشهورة تقرع حسهم ؛ فابتلى الله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يكون المتولى لهذه القارعة تتميما لرسالته ، وقياما بحق التبليغ ، ابتلاه بأن يتزوج زينب عندما تطلق من زوجها ، وصدر إليه أمر السماء بأن يكون على أهبة لذلك ؛ ولكنه لم يعلن ذلك الأمر ، وأُعلم أن زيداً مطلق زينب لا محالة لاستحكام النفرة ، وأخفى النبى أيضاً عن الزوجين ما علم .

وفى هذه الأثناء كان زيد لا ينى عن شكوى زوجته إلى الرسول ، واستئذانه فى طلاقها ، وقد حكى الله سبحانه قول النبى صلى الله عليه وسلم له فقال : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » أى تخفى فى نفسك أنه لا بد مطلقها ، وأن الله أمرك بتزوجها ؛ « ما الله مبديه » وهو أمر الزواج والطلاق ، وليس أمر العشق والهوى ؛ لأن الله سبحانه ما أبدى عشقاً للنبى وهوى له ، « وتخشى الناس » تستحيى من مفاجأتهم بغير ما يألفون ، « والله أحق أن تخشاه » وقد أمرك فلا مناص من الإجابة : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا ؛ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدورا » .

١٧ — هذه الآيات الكريمة صريحة فى أن الأمر قد قصد به قارعة تقرع حس العرب ، لكى تقتلع من نفوسهم فكرة التبنى ، وقد صرح الله سبحانه بذلك إذ قال : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم » .

ولقد تعلق الدساسون ، ومن تبعهم من الجهلاء بقوله تعالى : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فزعموا أن الذى أخفاه الحب والهيام ، وفات الجهلاء أن الله ما أبدى شيئاً من ذلك ؛ وإن الذى فسرنا به الآية ليس بدعا ابتدعناه ، ولا بديئاً سبقنا به ، بل هو التفسير الأثرى الصحيح .

فقد جاء فى تفسير ابن كثير ما نصه : (عن على بن زيد بن جدعان ، قال سألنى على بن الحسين رضى الله عنه ما يقول الحسن فى قوله تعالى : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » قال : لا . . ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه . قال : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » فقال قد أخبرتك أنى مزوجكها « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ») .

ومن الغريب أن دس يوحنا الدمشقى فى هذا المقام كان عظيم الأثر ، حتى راجت عن التابعين الروايات التى تدل على التأثر بذلك التفكير البعيد عن حقيقة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ بل إن ابن جرير شيخ مفسرى السلف وقع فى تأثير تلك الروايات ، فقبلها تفسيراً ورأياً ، مع أنها كلها روايات باطلة ، وقد قال ابن كثير فى ذلك : « ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردها »[1] .

١٨ — هذه حقيقة الأمر فى ذلك الأمر الذى روجه المفسدون من أقدم العصور إلى اليوم ، وإنا سقنا ذلك القول لا لبيان ذلك فقط ؛ بل لننفذ منه إلى ما اتجهت إليه الشريعة فى تحرى الأنساب والمحافظة عليها والصيانة للفضيله والحرص عليها . ولقد أغلقت الشريعة باب التبنى ، فقد قال الله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . فما أعدل حكم الله يحث على أن يُدعى الناس لآبائهم ؛ لأن التبنى كذب فى ذاته ، واعتداء على الآباء الحقيقيين ، فكان القسط عند الله أن يكون كل امرىء لأبيه ، فإن لم يكن لهم أب فلن يكسبوا شرفاً بذلك الادعاء الباطل ؛ الذى هو كذب فى ذاته ، بل الشرف كل الشرف لهم فى أن يكونوا إخواناً لكم ونصراء ، ولا تعتبروهم أدنياء أذلاء ؛ لأن الشرف لا يكتسب بالكذب ، والشرف الحقيقى هو فى الأخوة الإسلامية العامة .

١٩ — هذا ما يقرره محمد بن عبد الله الأمى الذى كان فى أمة تعتبر من أسباب ثبوت النسب الإلحاق والتبنى كما كان ذلك مقرراً عند الرومان ؛ ولقد ادعى بعض المستشرقين — ولم ينف ادعاءه — أن محمداً أتى بالعادات العربية ، فجعل منها أحكاماً واجبة التطبيق ، وهذا كلام لا يقف على أصل ثابت ، ولا يعتمد على دعامة قائمة ، بل هو فرية لاشك فيها ؛ ولو كان محمد كذلك فيما أنزل عليه من شرع لأقر نظام التبنى كما كان عند العرب ، ولاستمر زيد ابنا له ، وقد كان صفيه وحبه ، حتى إنه كان يلى ابنته فاطمة فى المحبة ، ولكن شرع الله أتى بالعدل والقسط الذى لم ينطق به أحد ؛ ولم يقله أحد ؛ ولم يجر على لسان أحد قبل محمد فى البلاد العربية وما حولها « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » .

وإن أردت أن تعرف فضل الإسلام ، فاقرنه بقانون الرومان الذى كان يعتبر

(١) ابن كثير الجزء الثالث ص ٤٩١ .

القانون الأمثل فى ذلك الزمن الغابر ، بل إنه لا زال يعتبر من أمثل القوانين فى عصرنا الحاضر .

٢٠ — كان القانون الرومانى يجيز التبنى للأولاد المجهولى النسب وغير المجهولى النسب . ومجهولو النسب ومعلومو النسب تبنيهم يجوز بالاتفاق معهم وتصديق الامبراطور إن لم يكونوا فى ولاية أحد ، وإن كانوا فى ولاية آبائهم فبالاتفاق مع آبائهم ؛ وكأن النسب شىء يمكن الاتفاق بالتراضى عليه ، ولعل الأمر المعقول فى هذا التبنى غير المعقول أنهم اشترطوا أن يولد مثل الدعى لمدعيه ، فقد جاء فى مدونة جوستنيان مانصه : « ومن المقرر أنه ليس لأحد قط أن يتبنى من هو أكبر منه سناً ؛ لأن التبنى محاكاة للطبيعة ، ومما يخالف الطبيعة أن يكون الابن أكبر سناً من أبيه ، وعليه فمن يريد أن يتبنى أحداً أو يستلحقه يجب أن يكون أسنّ منه بقدر مدة البلوغ التام : أى بمقدار ثمانى عشرة سنة » .

وقد كان الذين يتبنون ولهم آباء معروفون يجردون من أسرهم تماماً ، ويصيرون من أسرة من تبناهم .

٢١ — وإن فرق ما بين شريعة القرآن ، وقانون الرومان فى هذا المقام هو فرق ما بين الطبيعة والفطرة ، وما هو ضد الطبيعة والفطرة ، وفرق ما بين الصدق والكذب ؛ فهذه الشريعة قصرت النسب على الطريق المنطق المعقول المشتق من الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وفى الدائرة الفاضلة التى تربط الناس بشكائم الأخلاق ، بينما القانون الرومانى والعادات العربية تتجانف عن طريق الفطرة ، فتجعل غير الأب أباً ، وتجعل للشخص الواحد أبوين ، وكأن الأبوة الإنسانية تنشأ بالاتفاق ، كما تنشأ ملكية الأشياء والمنافع ، وإذا كان النبى الأمى قد قرر تلك الحقائق التى جاءت على غير المألوف عندهم ، بل إنه هو نفسه قد خضع له وقتاً ما ، وقال إن تلك الحقائق هى من عند الله ، فمن الذى يكذبه معتمداً على حق أو على أمر معقول ، إنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب قط ولم يتعلم قط ، ولم يكن فى عصره علم على هذا النوع حتى يكون قد لقّنه أو تعلمه ، إنه بلا ريب من عند الله العليم الحكيم .

٢٢ — هذا شأن ثبوت النسب فى الإسلام جعلوا أساسه الفطرة مع الفضيلة فجعل النسب لا يثبت إلا فى ظل زوجة شرعية ، ولا يثبت من إثم فاجر ، فقال عليه السلام : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، لأن ثبوت النسب نعمة تساق إلى المنتسب والمنسوب إليه ، بل هو أعظم نعمة تساق فى هذا الوجود الإنسانى ، وإنه لو فتح الباب فيه للرذيلة كما هو مفتوح للفضيلة لكانت الأنساب فوضى ليس لها حدود ولا ضوابط ، وكان

يسوغ للبغى أن تلحق ولداً برجل لمجرد مسافحة عارضة ، كما كان يجرى فى بعض بغايا العرب ؛ فقد كانت البغى تلحق أولادها عن تشاء ممن بغوا معها ؛ ولا شك أنها ستختار الأملأ والأشرف ، وإن لم يكن الولد منه ، لذلك كان لا بد من وضع حدود حاجزة ، ولا بد أن يكون الحد الراسم للحقوق فى ثبوت النسب أمراً ظاهراً ، لكى يمكن الاحتكام إليه ، ثم لا بد أن يكون ذلك الأمر فاضلا ، ولا يكون آثماً ؛ إذ أن الطرق الآثمة فى هذا الباب وغيره مثارات للشيطان ؛ ولا يمكن الاهتداء إلى حق فى وسطها ، ولا معرفة حقيقة مستقرة فى ظلامها ، لأنها ظلام معتم يؤدى إلى الفوضى فى الأنساب .

٢٣ — وبعد هذا انتقل إلى تعدد الزوجات ، وهو الأمر الذى كان يتخذه يوحنا الدمشقى سبيلا لتشكيك المسلمين فى دينهم ، ومنع النصارى من الانتقال إليه ، إذ قد يتبين لهم الهدى فيه . وسنبين أن شريعة محمد فى تعدد الزوجات تدل على أن محمداً ما كان ينطق عن الهوى بل هو وحى يوحى ، وأن القرآن الذى نظم أمرها ليس من عند محمد بل هو من عند اللطيف الخبير .

لقد كان التعدد فى الزوجات قبل الإسلام مطلقاً من غير قيد يقيده ، فلم تقيده الشريعة الموسوية بأى قيد من العدد ، وفى بعض عهوده قيدوه بثمانى عشرة ؛ لأنها أقصى ما يمكن أن تصل إليه الطاقة فى الإنفاق ، ولم تكن أمة توحد فى الزوجة إلا مصر ، وسرى إلى الرومان عن طريقهم منع التعدد ؛ وبهذا أخذ النصارى ، وليس فى الأناجيل ولا فى رسائل الرسل عندهم أى عبارة تفيد منع التعدد .

ولقد كان العرب يعددون من غير قيد يقيدهم ، لأن المرأة كانت عندهم كالمتاع ، بل إن الزوجة كانت تورث كما تورث التركة ؛ فجاء محمد الأمى ووقف حاجزاً دون ذلك الإفراط ، ودون ذلك الظلم ، ورد للمرأة كرامتها ؛ فمنع العدد لأكثر من أربع ، واشترط القرآن الكريم لإباحة التعدد إقامة العدل والقدرة على الانفاق ؛ ولذلك قال سبحانه « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » .

وقد اتفق علماء المسلمين على أمرين (أولهما) أن المراد بالعدل هو العدل الظاهر الذى يستطيعه كل إنسان ، وليس المراد العدل فى المحبة القلبية ، الذى نفى الله استطاعته نفياً مؤكداً فى قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

(وثانيهما) : أن الزواج مع عدم تحقق العدالة زواج صحيح وليس بباطل لاستيفاء أركانه وشروطه ، ولأن العقود تناط صحتها وفسادها بأمور متحققة واقعة عند العقد ،

لا بأمور متوقعة ، والشخص عند الزواج لا يتحقق ظلمه ، إنما يتحقق بعد ذلك ، وربما لا يتحقق فيجيء ما ليس فى الحسبان ويعدل ، ولكنه يكون آثما إذا ظلم ، كما يتحقق الإثم فى كل ظلم ، بل إثمه هنا مضاعف ؛ لأنه ظلم أولا ، وتزوج وهو يعتقد أنه يظلم ، فكان عاصياً من هذه الناحية ثانياً .

٢٤ — وإن المسلك الذى سلكته شريعة القرآن هو المسلك المستقيم ، فلم تبحه بإطلاق ، ولم تمنعه بإطلاق ، وإن ذلك هو الذى يتفق مع عموم الرسالة للناس فى كل الأجيال وكل الأجناس ، وكل الطبقات ، فهى قد جاءت للجنس الأبيض ، والجنس الأحمر ، والجنس الأصفر ، والجنس الأسود ، ومن يسكن فى البلاد الحارة ، ومن يسكن فى البلاد الباردة . وإن الشريعة التى يكون لها ذلك العموم ، يكون فيها من المرونة والسعة ما يوافق كل الأمزجة ولا يشق عليها ، وما تعالج به كل الأدواء ، ويجب أن تكون قيودها قابلة للسعة والضيق .

وإن ذلك المعنى واضح كل الوضوح فى تعدد الزوجات ، لقد أبيح عدد يجد فيه الذواق القادر على إقامة العدل رغبته ، وقيد فى الإباحة بقيد لو شدد فيه لكان قريباً من المنع المطلق ، ولو أرخى فيه لكان بين ذلك قواماً ، ولو كانت الشريعة لأهل أوربا فقط ، وهم الذين تمرست نفوس بعضهم بالزوجة الواحدة لاستساغت نفوسهم فى ظاهر الأمر المنع ، ولوجدوا فى شدة القيد ما ألفوه من أحكام الزواج ، ولكن الإسلام خاطب الجميع ؛ ولا يزال فى الدنيا ناس لا يعرفون إلا التعدد ، وفى الدنيا نساء يفرحن عند دخول ضرة جديدة عليهن ؛ لأنها تخفف عنهن أثقال الخدمة ، وتكون لهن الرياسة عليها ، فهل يستسيغ هؤلاء المنع المطلق ؟ .

إنه إن أغلق باب التعدد وأحكم إغلاقه بالمنع المطلق اقتحم الرجال الذين يصعب عليهم ذلك المنع أبواب الفسق ؛ فهتكت الأعراض وكثر الأولاد الذين لا آباء لهم ، وكثرت الأمراض الخبيثة التى تنتقل إلى الذرية . لقد حرم الأوربيون تعدد الزوجات واستمسكوا به ، وارتضوه ديناً ، ولكنهم فتحوا لأنفسهم باب الحرام على مصراعيه ، فكان التضييق فى الحلال سبباً فى التوسع فى الحرام فانسابوا فيه انسيابا ، وكان الوباء على النسل فى البلاد عظيما . وإن العاقل لو خير بين حلال معيب وحرام لا شك فيه لاختار الحلال المعيب ، ولو خير بين تعدد فيه رعاية الأولاد وحفظ الأنساب ، وبين فسق فيه إهمال الأولاد وضياع الأنساب لاختار الأول بلا شك .

٢٥ — وإن التعدد قد يكون علاجا اجتماعيا لنقص يوجد للأمة فى رجالها

ونسلها ، فقد يقل عدد الرجال الصالحين للزواج عن عدد الإناث ، وقد بدأ ذلك فى ألمانيا بعد الحرب الأخيرة ، فقد صار عدد النساء الصالحات للزواج أضعاف عدد الرجال الصالحين ، وخيف على النسل ، ولذلك أباحت حكومة (بون) عاصمة ألمانيا الغربية التعدد ؛ لأنها وجدت فيه علاجاً لهذا الداء الاجتماعى ، وسبيلا لتكثير نسلها ، وإلا أوشكت على الفناء ! .

وفوق ذلك ففيه تحفظ المرأة من الدنس ، ولا يهون شأنها ؛ وأى الأمرين يكون أهون بالمرأة ، وأحط لدرجتها فى الاجتماع : أن تكون زوجاً لها بيت ترعاه ، وزوج يرعاها ؛ وأولاد شرعيون تقوم على شئونهم ، أم أن تكون خليلة أو بغياً ليس لها زوج تنادى باسمه ، ولا بيت تأوى إليه ؛ وأولادها ليس لهم أب كافل يحميهم ؟ ! إن الهوان بلا شك فى الثانى .

وإن إباحة التعدد فيه تكثير للنسل ، وحفظ له ، وإن الأمم تتنافس على الحرب ، وأداة الحرب فى الحاضر كما كانت فى الماضى العدة والعدد ، ولقد كاثرت روسيا ألمانيا فى الحرب الأخيرة بعددها ، وإن كانت دونها فى العتاد ؛ فغلبتها ، لأنه كلما فنيت منها كتيبة أعقبتها أخرى .

وإن التعدد ليس فى مصلحة الرجل دائماً ؛ وليس ضرراً على المرأة دائما ، فقد يكون لها ضرورة لا بد منها ، ليحفظ لها اعتبارها ، فقد يكون بين الرجل والمرأة ما ينزل بقدرها ، ويجعلها عاراً على ذويها ، ولا يمحو العار إلا الزواج ، فإذا كان الرجل متزوجا ، فإن التعدد يكون من مصلحة المرأة لا محالة .

إن التعدد العادل طريق سوى ؛ وإن النظر الفاحص ينتهى لا محالة إلى أن التعدد فى مصلحة المرأة ، فإن أىَّ امرأة لا تقدم على التزوج بمتزوج إلا إذا كانت على ثقة كاملة بأن ذلك من مصلحتها ، أو الضرورة ألزمتها بذلك .

هذا منطق الحياة ، وتلك شريعة الله ؛ فإذا كانت قد جاءت على لسان أمى لم يؤت علماً ، وقال إن ذلك من عند الله ، ألا يكون قوله مع حاله فيه الدليل الساطع ، والبرهان القاطع ؟ .

وفى المقال التالى نبين الأمر فى الطلاق ، والله ولى التوفيق .

السُّنَّة

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

(٢)

وجوب طاعة رسول الله فى حياته

كان الصحابة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذى يتلقونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وكثيرا ما كانت تنزل آيات القرآن مجملة غير مفصلة ، أو مطلقة غير مقيدة ؛ كالأمر بالصلاة جاء مجملا لم يبين فى القرآن عدد ركعاتها ولا هيئتها ولا أوقاتها ، وكالأمر بالزكاة جاء مطلقا لم يقيد بالحد الأدنى الذى تجب فيه الزكاة ، ولم يبين مقاديرها ولا شروطها ، وكذلك كثير من الأحكام التى لا يمكن تنفيذها دون الوقوف على شرح مايتصل بها من شروط وأركان ومفسدات ؛ فكان لابد لهم من الرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفة الأحكام معرفة تفصيلية واضحة . وكذلك كان يقع لهم كثير من الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن فلابد من بيان حكمها عن طريقه عليه الصلاة والسلام وهو مبلغ عن ربه ، وأدرى الخلق بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومراميها ، وقد أخبر الله فى كتابه الكريم أن مهمة الرسول بالنسبة للقرآن أنه مبين له وموضح لمراميه وآياته حيث يقول الله تعالى فى كتابه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون[١] » كما بين أن مهمته إيضاح الحق حين يختلف فيه الناس : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[٢] » وأوجب النزول على حكمه فى كل خلاف : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما[٣] » وأخبر أنه أوتى القرآن والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم فقال : « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين[٤] » .

وقد ذهب جمهور العلماء والمحققين إلى أن الحكمة شىء غير القرآن ، وهى ما أطلعه

---

(١) النحل : ٤٤ (٢) النحل : ٦٤ (٣) النساء : ٦٥ (٤) آل عمران : ١٦٤

الله عليه من أسرار دينية وأحكام شرعية ، ويعبر العلماء عنها بالسنة . قال الشافعى رحمه الله : « فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ، أو هذا يشبه ما قال والله أعلم ؛ لأن القرآن ذُكر وأُتبعته الحكمة وذكر الله منته على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز ، — والله أعلم — أن يقال الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ، وذلك أنها مقرونة مع الكتاب ، وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله وسنة رسوله لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به[1] » . وواضح مما ذكره الشافعى هنا — رحمه الله — أنه يجزم بأن الحكمة هى السنة لأن الله عطفها على الكتاب وذلك يقتضى المغايرة ولا يصح أن تكون شيئاً غير السنة لأنها فى معرض المنة من الله علينا بتعليمنا إياها ، ولا يمن إلا بما هو حق وصواب ، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن . ولم يوجب علينا إلا اتباع القرآن والرسول ؛ فتعين أن تكون الحكمة هى ما صدر عن الرسول من أحكام وأقوال فى معرض التشريع .

وإذا كان كذلك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتى القرآن وشيئاً آخر معه يجب اتباعه فيه ، وقد جاء ذلك مصرحاً به فى قوله تعالى فى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم[2] » ومادام اللفظ عاما فهو شامل لما يحله ويحرمه مما مصدره القرآن أومصدره وحى يوحيه الله إليه . وقد روى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » .

ويدل على ذلك أن الله أوجب على المسلمين اتباع الرسول فيما يأمر وينهى فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[3] » وقرن طاعة الرسول بطاعته فى آيات كثيرة من القرآن فقال : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون[4] » وحث على الاستجابة لما يدعو ، فقال : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم[5] » واعتبر طاعته طاعة لله واتباعه حباً لله : « من يُطع الرسول فقد أطاع الله[6] » وقال أيضاً : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم[7] » .

(١) الرسالة ص ٧٨ (٢) الأعراف : ١٥٦ (٣) الحشر : ٧
(٤) آل عمران : ١٣٢ (٥) الأنفال : ٢٤ (٦) النساء : ٨٠
(٧) آل عمران : ٣١

وحذّر من مخالفة أمره : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم [١] » بل أشار إلى أن مخالفته كفر : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين [٢] » ولم يبح للمؤمنين مطلقا أن يخالفوا حكمه أو أوامره : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً [٣] » .

واعتبر من علامات النفاق الإعراض عن تحكيم الرسول فى مواطن الخلاف : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . . إنما كان قول المؤمنين ، إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون [٤] » ، بل جعل من لوازم الإيمان ألا يذهبوا حين يكونون مع رسول الله دون أن يستأذنوه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم [٥] » قال ابن القيم : فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه؛ فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمى إلا بعد استئذانه . وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه[٦] .

ومن هذا كله كان لا بد للصحابة من الرجوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر لهم أحكام القرآن ويبين لهم مشكلاته ويحكم بينهم فى المنازعات ويحل لهم الخصومات . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون حدود أمره ونهيه ويتبعونه فى أعماله وعباداته وصلاته إلا ما علموا منه أنه خاص به ، فكانوا يأخذون منه أحكام الصلاة وأركانها وهيآتها نزولا عند أمره صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى [٧] » ويأخذون عنه مناسك الحج وشعائره امتثالا لأمره أيضاً : « خذوا عنى مناسككم [٨] » ، وقد يغضب إذا علم أن بعض صحابته لم يتأس به فيما يفعله ، كما روى مالك فى الموطأ عن عطاء بن يسار أن رجلا من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم تقبيل الصائم لزوجته ، فأخبرتها أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو

---

(١) النور : ٦٣ . (٢) آل عمران : ٣٢ (٣) الأحزاب : ٣٦
(٤) النور : ٤٧ — ٥٤ . (٥) النور : ٦٢ . (٦) أعلام الموقعين ج ١ ص ٥٨ .
(٧) أخرجه البخارى . (٨) رواه مسلم عن جابر .

صائم فرجعت إلى زوجها فأخبرته فقال : لست مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما يشاء فبلغ قوله ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب وقال : « إنى أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده (١) » ، كما غضب حين أمر الصحابة بالحلق والإحلال من الإحرام فى صلح الحديبية فلم يفعلوا إذ شق ذلك عليهم ، حتى بادر بنفسه فتحلل فابتدروا يقتدون به .

ولقد بلغ من اقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ، دون أن يعلموا لذلك سبباً أو يسألوه عن علته وحكمته ؛ فقد أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتم من ذهب ، ثم نبذه النبى وقال : « إنى لن ألبسه أبداً » . فنبذ الناس خواتمهم . وروى القاضى فى شرحه للشفاء عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره ، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقائكم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فقال : إن جبريل أخبرنى أن فيهما قذراً . وذكر ابن سعيد فى الطبقات أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين ثم أُمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون (٢) . بل بلغ من امتثالهم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن فعلوا ذلك حتى فى شئون الدنيا ؛ فقد أخرج أبو داود وابن عبد البر عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه جاء يوم الجمعة والنبى يخطب فسمعه يقول : اجلسوا ؛ فجلس بباب المسجد : أى حيث سمع النبى يقول ذلك ، فرآه النبى عليه الصلاة والسلام فقال له : « تعال يا عبد الله بن مسعود » .

وهكذا كان الصحابة مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى حياته يعتبرون قوله وفعله وتقريره حكما شرعياً لا يختلف فى ذلك واحد منهم ، ولا يجيز أحدهم لنفسه أن يخالفه كما لا يجيز لنفسه أن يخالف أمر القرآن ، وما كان الصحابة يراجعون رسول الله فى أمر إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهاداً منه فى أمر دنيوى ؛ كما فى غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر فى مكان النزول ، أو إذا كان اجتهاداً منه فى بحث دينى قبل تقرير الله له أو نهيه عنه ؛ كما راجعه عمر فى أسرى بدر وصلح الحديبية ، أو إذا كان غريباً على عقولهم فيناقشونه لمعرفة الحكمة فقط ، أو كانوا يظنون فعله خاصاً به فلا يلزمون أنفسهم به ، أو إذا أمرهم بأمر فظنوا أنه للاباحة وأن غير المأمور به أولى . أما ما عدا ذلك فكان التسلم المطلق والاتباع التام والالتزام الكامل .

---

(١) أخرجه الشافعى أيضاً فى الرسالة ص ٤٠٤ .
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧ .

وجوب طاعته بعد وفاته

وكما وجب على الصحابة بأمر الله فى القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وجب عليهم وعلى من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ؛ لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ، ولا بصحابته دون غيرهم ، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم ، وهى أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته ، ولأن العلة أيضاً جامعة فى حياته ووفاته ، إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئاً عن معصوم أمر الله بامتثال أمره ؛ فلا يختلف الحال بين أن يكون حياً ، وبعد وفاته ، وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى وجوب اتباع سنته حيث يغيب المسلم عنه حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن ، فقال له : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله . . قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ . . قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال:أجتهد رأيى ولا آلو ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال : الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله . . رواه أحمد وأبو داود والترمذى والدارمى والبيهقى فى المدخل وابن سعد فى الطبقات وابن عبد البر . . كما حث على وجوب العمل بسنته بعد وفاته . وهناك أحاديث كثيرة جداً بلغت حد التواتر المعنوى، منها مارواه الحاكم وابن عبدالبر عن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » (١) ورواه أيضاً البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وروى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه ، فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة نبى ماضية » وروى البخارى والحاكم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . . » قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » . وروى أبوعبد الله الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع : «إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ؛ إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه» وأخرج ابن عبد البر عن عرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون

(١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٠

ووجلت منها القلوب وقيل : يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : « عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة[1] » .

ومن أجل هذا عنى الصحابة رضوان الله عليهم بتبليغ السنة لأنها أمانة الرسول عندهم إلى الأجيال المتلاحقة من بعدهم ، وقد رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغ العلم عنه إلى مَن بعده بقوله : « رحم الله امرأً سمع مقالتى فأداها كما سمعها . وربَّ مبلغ أوعى من سامع[2] » .

كيف كان الصحابة يتلقون سنة الرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش بين أصحابه دون أن يكون بينه وبينهم حجاب ؛ فقد كان يخالطهم فى المسجد والسوق والبيت والسفر والحضر ، وكانت أفعاله وأقواله محل عناية منهم وتقدير حيث كان صلى الله عليه وسلم محور حياتهم الدينية والدنيوية بعد أن هداهم الله به وأنقذهم من الضلالة والظلام إلى الهداية والنور . ولقد بلغ من حرصهم على تتبعهم لأقواله وأعماله أن كان بعضهم يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحدثنا عنه البخارى بسنده المتصل إليه ، يقول : « كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية ابن زيد وهى من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله : ينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » وليس هذا إلا دليلا على نظر الصحابة إلى رسول الله نظرة اتباع واسترشاد برأيه وعمله لما ثبت عندهم من وجوب اتباعه والنزول عند أمره ونهيه . ولهذا كانت القبائل النائية عن المدينة ترسل إليه صلى الله عليه وسلم بعض أفرادها ليتعلموا أحكام الإسلام من رسول الله ، ثم يرجعون إليهم معلمين ومرشدين ، بل كان الصحابى يقطع المسافات الواسعة ليسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم شرعى . ثم يرجع لا يلوى على شىء ؛ روى البخارى فى صحيحه عن عقبة بن الحارث أنه أخبرته امرأة بأنها أرضعته هو وزوجه فركب من فوره — وكان بمكة — قاصداً المدينة حتى

(١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٢ وأخرجه الترمذى أيضاً وأبوداود والإمام أحمد وابن ماجة وقال الحافظ أبو نعيم : هو حديث جيد فى صحيح حديث الشاميين .

(٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ٣٩ ورواه ابن حبان فى صحيحه وأبو داود والترمذى وحسنه النسائى وابن ماجة والبيهقى بتقديم وتأخير وزيادة عند بعضهم دون البعض .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف وقد قيل » ففارق زوجته لوقته فتزوجت بغيره ، وكان من عادتهم أن يسألوا زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بشئون الرجل مع زوجته لعلمهن بأحوال رسول الله العائلية الخاصة كما قدمنا من قصة الصحابى الذى أرسل امرأته تسأل عن تقبيل الصائم لزوجته ، فأخبرتها أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو صائم ، كما كانت النساء تذهب إلى زوجات النبي فأحيانا يسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشأن السؤال عنه من أمورهن ، فإذا كان هناك ما يمنع من التصريح للمرأة بالحكم الشرعى أمر إحدى زوجاته أن تفهمها إياه : كما جاء أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم كيف تتطهر من الحيض فقال عليه الصلاة والسلام : « خذى فرصة ممسكة فتوضئى بها » فقالت : يا رسول الله كيف أتوضأ بها فأعاد كلامه السابق عليها فلم تفهم ، وأشار إلى عائشة أن تفهمها ما يريد فأفهمتها المراد ؛ وهو أن تأخذ قطعة قطن نظيفة فتضعها فى مكان الدم فإن خرجت بيضاء كان ذلك علامة طهرها (١) .

غير أن الصحابة لم يكونوا جميعاً على مبلغ واحد من العلم بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله ؛ فقد كان منهم الحضرى والبدوى ، ومنهم التاجر والصانع والمنقطع للعبادة الذى لا يجد عملا ، ومنهم المقيم فى المدينة ، ومنهم المكثر فى الغياب عنها . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس للتعليم مجلساً عاما يجتمع إليه فيه الصحابة كلهم إلا أحيانا نادرة وإلا أيام الجمعة والعيدين وفى الوقت بعد الوقت . روى البخارى عن ابن مسعود ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة تلو الموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا . ومن هنا يقول مسروق ؛ لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالآخاذ(٢) ؛ فالآخذ يروى الرجل ، والآخاذ يروى الرجلين ، والآخاذ يروى العشرة ، والآخاذ يروى المائة ، والآخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم . وطبيعى أن يكون أكثر الصحابة علماً بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين كانوا أسبقهم إسلاما كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود ، أو أكثرهم ملازمة له كأبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم .

« يتبع »

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن عائشة .

(٢) الآخاذ : الغدير .

المثل الأعلى للحياة السعيدة في الإسلام

عفة وإيثار، ينتهيان إلى تعاون كريم

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

ضَرَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المثلَ للحياة السعيدة فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه (٥ : ١٣٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجلُ الذى اشترى العقار فى عقاره جرَّة فيها ذهب . فقال للذى اشترى العقار منه :

— خذ ذهبك عنى ، إنما اشتريت منك الأرضَ ولم أبتع منك الذهب .

فقال الآخر : إنما بعتك الأرض وما فيها

قال صلى الله عليه وسلم : فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه :

— ألكما ولد ؟

فقال أحدهما : لى غلام .

وقال الآخر : لى جارية .

فقال الحكم : « أنكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا على أنفسكما منه ، وتصدَّقا »

* * *

إن السعادة — فى المثل الذى ضربه رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم لأمته — ليست فى اكتشاف هذا الكنز الذهبى ، فإن الذين يكتشفون الكنوز الذهبية فى باطن الأرض ، أو فى جيوب الناس ، كثيرٌ عددهم . وقد يصيبون من ورائها الثروة جامدة فلا تبضُّ بقطرة خير ، أو سائلة فتسيح فلا يبقى منها لصاحبها ولا لغيره أىُّ خير . بل السعادة فى هذا المثل الأعلى هى فى اكتشاف معادن الخير مختبئة فى نفوس أصحابها .

إن مشترى العقار وبائعه اختلفا ، وتنازعا ، وتحاكما إلى ثالث . ولم يكن الدافع لهما على الاختلاف والنزاع هياجُ شهوة النفس لاختطاف هذا المال الرخيص الذى فاجأهما بلا كدّ ولا تعب ، بل لأجل أن يعفى كل واحد منهما نفسه من مال لم يكن يعلم أنه له وأنه صار إليه بسعيه ، ومن حلته . فكان كلٌّ منهما حريصاً على أن يخرج من هذه الورطة المادية بسلامة أخلاقهما ، وراحة نفسيهما . وهذا أغلى ما كان يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته التى يحبها ، ويحب لهـا خير ما يعلمه من أسباب السعادة .

السعادة حمامة لا تجد الأنس والدفء والهناءة إلا فى سكينة الرضا . وسكينة الرضا يستحيل وجودها فى نفوس صنف من الناس شغفت قلوبهم بالرغبة فى التزيُّد من المال الكثير وهم فى هلع متواصل لإحراز قصب السبق بين الأقران من قوارين هـذا المضمار . فمهما أثرى الواحد منهم فإن حرصه على الإزدياد من الثروة دليل على اعتقاده — بينه وبين نفسه — بأن ما هو فيه لم ينله السعادة بعدُ . لأنه ليس هو أغنى أغنياء الدنيا بلا استثناء ، وما دام فى الدنيا من هو أغنى منه فهو أفقر من ذلك الأغنى ، ويتألم لمضاضة هذا الفقر وإن كان نسبياً . ومن العجيب أن المقدار الكافى لسد مطالب الحياة الهنيئة متوفر له ولألوف وملايين ممن هم أقل غنى منه ، وما زاد عن ذلك فهو عبء على صاحبه للمحافظة عليه ، وهو أبداً فى عناء التفكير والسعى لتثميره والزيادة منه . وكان يكون معقولا لو أن هذه الزيادة المطلوب استمرارها بعد استيفاء مطالب الحياة ترصد لأعمال نبيلة ينتفع بها المجتمع ، وتخفف من ضرورات الآخرين ، وتعين على تكوين الأمة الصالحة السعيدة ، وتستثمر بها خيرات الطبيعة وينابيع ثروة الوطن أو يبذل منها لتقويم نظام المجتمع وإمضائه فى أسلوب عادل يرضى الله ويسعد الناس وينهض بمستوى الإنسانية . والشرط الأساسى لذلك تنزيه رءوس الأموال الضخمة عن قذارة الإرباء من استغلال ضرورات الناس أو التحكم بأقوات الجماهير وكسائهم وحاجياتهم ، ومن تمام ذلك الشرط تزكية الثروة بتنظيم الإحسان وتيسير العمل الشريف لطالبيه .

وما دام القدر الكافى للعيش الهنىء ، هو قدر مشترك ميسور لجميع أفراد الطبقات الوسطى فضلا عن التى فوقها ، فلا شك أن فى متناول أيديهم جميعاً أن يكونوا سعداء

إذا فهموا أن المعنى الصحيح للغنى هو استغناء صاحبه عن الحاجة إلى الآخرين فى ضروريات العيش ، وأن يرضى لشخصه ولبيته بهذا المقدار ، وذلك باعتياد القصد والقناعة والاعتدال فى أسلوب الحياة ، والتحرُّر من كل ما يمكن الاستغناء عنه كالتدخين وسائر ما لافائدة له فى الغذاء والكساء والسكن المريح . والإسلام يدور مع معانى القصد والقناعة والاعتدال فى جميع الأهداف التى يرمى إليها . وقواعد الإسلام وسننه لاتنكر أن المال قوة ، وأن من القوة للاسلام أن يكون المسلمون من أصحاب الثروات ، وكان فى الصحابة — كعبد الرحمن بن عوف — أصحاب ملايين كثيرة جداً ، غير أن المسلم ينظر إلى الثروة نظرة مزدوجة ، فبإحدى النظرتين يقيم معيشته الشخصية والبيتية على دعائم القصد والقناعة والاعتدال حتى لو صار أغنى من عبد الرحمن بن عوف ، أو دخل تحت تصرُّفه كل ما كان يحمل إلى عمر بن الخطاب من جباية العراق ومصر والشام وشمال إفريقية وأنحاء جزيرة العرب ومملكة كسرى ، فهذه الجبال من الأموال لاتستطيع أن تحوّل المسلم عن مفتاح إسلامه — وهو القصد والقناعة والاعتدال — لأن له نظرة أخرى إلى المال يعتبر بها ما زاد منه عن حاجته الضرورية أنه (أمانة) لله عنده ، سواء كان مالا عاما كالذى كان يحمل إلى عمر ، أو مالا خاصا كالذى كان يكسبه عبد الرحمن بن عوف من متاجره الواسعة . وهو يرى أن الله ممتحنه فى كيفية تصرفه بهذا المال على ماتكون به القوة للاسلام ، والسعادة لأهله ، والمعونة للمسلمين على مايصلح أحوالهم ، ومن ذلك انتشال الذين كبا بهم جواد الحياة ليتمكنوا من استئناف السير فى طريق الحياة . ويذكر التاريخ أن غنياً من أغنياء المسلمين جعل فى أمواله وقفاً تصرف غلته لجبر كسر ما يكسر بأيدى الخدم وغيرهم من الأوانى وهم بين السوق والمنزل ، فإذا سقط من يد خادمة إناء فيه سمن أو زيت أو لبن أسرع إليها وكيل ذلك الوقف فى نفس السوق فصرف لها ثمن الإناء المكسور وماكان فيه . ومن الأوقاف ما كان موقوفاً لإقراض المال قرضاً حسناً ، وأمثال هذه الوجوه التى تهوّن على المعسرين وسائل الحياة . وأغنياء المسلمين الذين ينظرون للمال هذه النظرة المزدوجة ، ولا يخرجون فى معيشتهم الشخصية عن دائرة القصد والعفة والاعتدال ، ويحسنون استعمال باقى (الأمانة) التى تحت أيديهم فى سد حاجة المجتمع الإسلامى من النواحى التى هو أشد حاجة إليها ، هؤلاء الأغنياء لا يمكن أن تنحطّ

نفوسهم إلى دركات الخسة التى تنحط إليها نفوس الذين يربون أموالهم من استغلال ضرورات الناس ، ومن التحكم بأقوات الجماهير . بل هم — على العكس من ذلك — تسمو نفوسهم إلى لذاذات أخرى تقوم على تنظيم الإحسان وبسط جناح رحمته على مرافق الأمة وأيدى فقرائها المفتقرة إلى فتح أبواب العمل لهم حتى لا يبقى فى المجتمع الإسلامى والإنسانى ذو فاقة ولا مغلوب على أمره .

كما أن هدف الدولة الإسلامية لا ينحصر فى وطن محدود أو أمة ضيقة النطاق ، كذلك المسلم إذا كان ذا غنى أو جاه أو قوة لا يحصر دائرة غناه أو جاهه أو قوته فى نفسه أو بيته ، بل يعتبر الأمة كلها والإنسانية بجملتها بيتاً له أو كنفس واحدة تقوم منه مقام نفسه . فإذا سره أن يزداد غنى وجاهاً وقوة فإن نفسه تسمو عن أن تكون دائرة فيضها محصورة فى نفسه وبيته وخاصته ، ويرى أنه أكبر من ذلك ، وقد تبلغ به عظمة النفس إلى أن يرى المجتمع كله أسرة كأسرته الصغيرة ، بل كنفسه التى يحيا بها ، ويسجل فى كتاب الله وقائع حسناتها .

إن الرجلين اللذين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بهما للتعامل الصالح فى الحياة — على ما كان يستحسنه صلى الله عليه وسلم ويقع من قلبه الشريف موقع الرضا — كانا من الطبقة المتوسطة التى يملك الواحد من أهلها عقاراً ويستطيع الاستغناء عنه بالبيع ، أو يملك من النقود ما يستطيع أن يشترى به عقاراً . فالرجلان من أهل « الغنى » بالمعنى الذى يستغنى به أهله عن الحاجة إلى الآخرين . والظاهر من المثل النبوى المضروب فى هذا الحديث الشريف المروى فى صحيح مسلم أن الرجلين فهما الغنى بهذا المعنى ، وارتاحت نفساهما إلى السعادة بما هما عليه ، والقناعة بعد ذلك بما يرزقهما الله من السعى اللذيذ للكسب الحلال ، فصار ذلك خلقاً لهما وسجية فيهما ، وقد حرصا على الاحتفاظ بهذا الخلق . فلما فوجئا بالكنز الذهبى فى الجرة التى عثر عليها شارى العقار فى أرض العقار ، رأى شارى العقار أن هذا الكنز ليس من كسبه ، وأنه لم يكن داخلا فى الشراء الحلال الذى انتقلت به ملكية العقار إليه . وأدرك بسليقته التى اكتسبها من تربيته الخلقية أن هذا الربح المجهول يتنافى مع طريقته التى ارتضاها لنفسه فى العيش الهنى ، ولعلها ستكون مبدأ تحوّل له عن طريقته السعيدة إلى طريقة جديدة تجر عليه عذاب الضمير ، وتغير على بنيه مجرى حياتهم . فأسرع إلى الذى

اشترى منه العقار وقال له : إن هذا الذهب ظهر فى أرض العقار الذى اشتريته منك ، وأنا اشتريت منك العقار ولم أشتر منك الذهب ، فتفضل وخذ ذهبك عنى . ولما كان بائع العقار هو أيضاً من الناس القليلين الذين اكتشفوا كنز السعادة فى قلوبهم ، وعرفوا قيمته فى نفوسهم ، واغتبطوا به فى تجارب حياتهم ، وساروا فى معيشتهم على مقتضى ذلك ، فإن هذا الرجل كان أحجى وأكثر يقظة من أن يتورط فى الخطأ ، ويزعج حياته الهنيئة بشىء جديد لم يكن فى حسبانه ، ولا هو اكتسبه بسعيه النبيل اللذيذ . لذلك أبى أن يأخذ جرة الذهب ، وقال لصاحبه : إنى كنت أعلم أنى بعتك العقار بما فيه ، وأنا خالى الذهن من الجرة وما فيها ، وفى مدة تصرفى بالعقار لم أكن أعلم بجرة الذهب ، ولا خطر على بالى أن لى شيئاً من ذلك . فهى منتقلة إليك — مع العقار — من المالك الأول الذى كان قبلى ، وأنا لا شأن لى بأمر هو بينك وبين المالك الأول .

ووقف هذان الرجلان السعيدان الراضيان عن الله ، والمرضى عنهما من الله ، أمام ورطة تهدد كلا منهما بتغيير مجرى حياته . ثم رأيا أن يجربا طريقة التحكيم للخروج من هذه الورطة ، فلجآ إلى رجل حكيم من أمثال أولئك الذين اعتادت جزيرة العرب — ينبوع الحق والخير — أن تلجأ إلى عقولهم الراجحة ومداركهم البعيدة الغور للخروج من المواقف الحرجة فى حياة الأفراد أو حياة الجماعات . وأول ما خطر على بال هذا الحكم الحكيم أن يجمع بين هذين الرجلين المتشابهين فى أخلاقهما ، وطهارة ذمتهما ، وحسن فهمهما للحياة السعيدة ، ليتعاونا — هما وذرياتهما من بعدهما — على المضى فى هذا الطريق الهنى من حياة الدنيا ، فسألهما : هل لهما من ولد ؟ واتفق أن كان لأحدهما فتى وللآخر فتاة ، فحكم هذا الرجل العاقل بأن يتزوج الفتى من الفتاة ، وأن يكون الكنز للبيتين معا ؛ لاستحالة الرجوع بجرة الذهب إلى أصحاب لها قدماء لا شك أنهم مجهولون ، ولا شك أيضا فى أنهم ماتوا ، ولو أنهم كانوا أحياء لكانت معرفتهم بجرتهم الذهبية تحملهم على منعها من الوصول إلى أيدى غيرهم قبل أن يخرج العقار من أيديهم . واشترط الحكم على المتبايعين إذا تصاهرا أن يمضيا فى طريقتهما فى النفقة على البيتين بأسلوبهما الذى كانا عليه ، وأن يجعلا من فضل ذلك صدقة جارية تخفف من شقاء المجتمع وتساهم فى النهوض بمستوى الإنسانية إلى المقام الذى يليق بها .

هذه الأخلاق ، وهذا الفهم الحكيم لمعنى « الغنى » ، هو المثل الأعلى فى الإسلام للحياة السعيدة ، وهو كما نرى قائم على أساس العفة والإيثار مع الفهم السليم لمعنى الغنى ، ويؤدى بطبيعة نظامه إلى التعاون الكريم الهنيء فى المجتمع .

وقبل أن أودّع قارئ هذا الفصل أحبُّ أن ألاحظ له أن الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى رحمه الله أدخل هذا الحديث النبوى الشريف فى (كتاب الأقضية) من صحيحه لأنه ذهب إلى أن هذا المثل إنما ضربه النبى صلى الله عليه وسلم للأحكام الإسلامية فى التشريع الاجتماعى ، ولم يضربه لمعانى الزهد والتهذيب الأدبى . وقد جُعل له فى كتاب الأقضية من صحيح مسلم عنوان خاص به وهو « باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين » ، وما أسعد أمة يكون تخاصم المتخاصمين من أبنائها أمام الحكام والحاكم على « إنقاذ » الأخلاق من « تكالب المال » على نهشها والتهامها . إن هذا صنيع أهل ملة فهموا معنى السعادة ، وأقاموا معالم الطريق لمن يريد أن يصل إليها .

وإنما انحط المسلمون ورخصت قِيم رجالاتهم لما هانت عليهم أخلاقهم هلعاً منهم على التزيُّد من النقود ، فضحوا لأجلها ببعض سجايا النفس الإسلامية وكريم معادنها ولما خسروا ما خسروا من سجايا نفوسهم خسروا أكثر من ذلك من صميم سعادتهم وسيادتهم .

أعيدوا أيها المسلمون إلى نفوسكم قيمها ، لتنهض بكم — أو على الأقل بأبنائكم — إلى مستوى خلفاء الله فى كائناته .

الدين

لا ثقة لى بمتخلق لا دين له ، فإن الخلق يصله بحظ نفسه أكثر مما يصله بواجبات الناس ، ولا بفيلسوف ملحد لأن الفلسفة تمزجه بالمادة أكثر مما تمزجه بالإنسانية ، ولا بمصلح ينسلخ من الدين لأن إصلاحه صور من غرور . . .

مصطفى صادق الرافعى

تاريخ بلا إيمان

للأستاذ محمود محمد شاكر

أنا أعلمُ أنى استفتحتُ موضوعاً ، لو شئت أن أستهلك فيه تلك الذُّبالة الخفاقة المترددة من بقيّة عمرى ، لما استطعتُ أن أوفيه حقّه من البيان ؛ فإن مادة التاريخ كلها تستقبلنى بقضها وقضيضها ، وتتذاءبُ بين يدى أصناف الطبائع البشرية التى فطر الله الناسَ عليها — على ما علمَ هو سبحانه — من اختلاف نفوسهم وساعاتهم وأيامهم وأجيالهم وعصورهم . وطبيعةُ رجُلٍ واحدٍ حىّ ، تعرفه وتعاشرهُ من ولد أبينا آدم صلى الله عليه ، مشكلةٌ تُعجز الفارسَ البصيرَ أن يهتدى إلى ما يختبىء فيها من التناقض والتخفى والتسرُّب . فما ظنُّك بإنسان لم يستبق لك الله منه ما تعرفه به إلا نبذاً يسيرا من أخبارٍ تُروى ، لا تستغرقُ سوى صفحة أو صفحات ، ولقد قضى فى الدنيا عُمُراً من قبلُ ، لو هو قُيِّد وكتب بجميع ما أحدث فيه ، لما وسعته المجلدات الضخمة ؟ فانظر إذنْ أين ينتهى بك توهمك ، وأنت تتحرّى أن تتعرّف خبءَ آلاف مؤلفة من مثل هذا الإنسان ، عاشت أعماراً طوالا وقصاراً فى طوايا الغيب الماضى ، استنفدتها بأعمالها وخواطرها ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، وعاماً بعد عام فى تاريخ متقادمٍ متطاول يمتدُّ فى غيب الماضى سبعين سنة ، وثلاثمائة سنة ، وألف سنة ، أو تزيد ! ! هذا تصوُّرٌ مثبط للفكر ، ولكنه ضرورة لا غنى عنها للمؤرخ ، وهو أشد ضرورة لمؤرخ يكتب تاريخ أهل الإسلام ، ثم هو أفدح ضرورة لأنه تاريخ — ما علمتُ — يختلف اختلافا مبيناً صارخا عن كل تاريخ عهده البشر فى سائر تواريخهم ، ثم هو الضرورة الراسخة لمنْ ورّط نفسه فى تأريخ أهل القرون الأولى من الإسلام . بيد أن المؤرخ المسلم وحده هو القادر على أن يكتب تاريخ أهل الإسلام — وغيرهم إن شاء — على وجه يمكن أن يوصف بالنبل والفهمِ والصدق والأمانة والثقة إذا هو حرَصَ على أن يتأدب بما أدبه به ربه من أخلاق تلزمه فى معاملته ، كما تصحبهُ فى تفكيره وبحثه ، وإذا هو مكن فى قلبه ونفسه الطاعة لما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدب كان يؤدب به أصحابه ممسكا بحجزهم أنْ : هلموا عن النار !

وعلمُ ضمائر خلق الله علم قد استأثر به ربنا سبحانه علامُ الغيوب . ومع ذلك ، فلست أغالى شيئاً إذا زعمتُ لك أن أكثر من ثلاثة أرباع تاريخ الدنيا ، لم يجتمع ولم يتكوّن ولم يصبح عملا فى الأرض إلا من خفيات هذه الضمائر . ونحن حينَ نرى نتائج أعمال البشر ، والتى نزعمها أو نسميها تاريخاً ، لا نرى إلا أثراً شاحباً متهافتا مما استسرّ فى جوانح خلق الله . وهذه الآثار ربما تشابهتْ عندنا تشابهاً غريباً ، مع أن الأسباب التى أحدثتها تختلف فى حقيقتها وطبيعتها كل الاختلاف . فإذا خفيت الأسبابُ وتشابهت الآثار ، فإجراء حكمٍ واحد على هذه الآثار المتشابهة خطلٌ وسوء رأى ، وإعظامٌ فى الفرية على الناس الماضين ، وإغراقٌ فى التضليل بالناس الحاضرين . وأنا لا أحيلك فى معرفة مصداقِ ما أقول إلى التاريخ الماضى ، بل إلى ما تشهدهُ بعينيك ، وتسمعهُ بأذنيك ، وتدركهُ ببصيرتك وفكرك من أحوال الناس الذين تعاشر ، والتاريخ الذى يصنع الأن بمرأى منك ومسمع ، ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم . فانظر كيف يحكمُ الناس بعضهم على بعض ، وكيف يفسر بعضهم أعمالَ بعض ، فإذا صح هذا عندك وتأملته ، علمت لم أوثر أن أدعوك إلى تصوّر أزمنة التاريخ وخلائقه ، تصوّراً طويلا عريضاً متراحباً ، يكاد يثبط الفكر الإنسانى عن العناية به والإلحاح عليه

وهذا الأصلُ الذى يكادُ يبلغُ مبلغَ البديهىّ ، أصلٌ متروك فى التأريخ الحديث . وذلك لأن حضارة هذا القرن العشرين المتحدّرةَ من عصور المدنية الأوربية الوثنية والمسيحية ، قد انبثقت من ضرورات اجتماعية وأخلاقية ودينية ، لا يمكنُ أن تدع لمثل هذا الأصل مكاناً فى التصوُّر ، إلا شعاعاً ميتَ النور ، ربما انبث فى بعض ما يؤلفون ، محاطاً بظلمات شديدة من الجرأة والتهجم والافتراء والرجم بالغيب ، والمبالغة فى اعتداد المؤرخ منهم بنفسه ، والإفراط فى ثقته بقدرة عقله ، والغلو فى تحكيم ما يدّعيه وما يفرضه على مادّة التاريخ ورواياته ، بغير بينة ولا حُجة .

ثم زاد هذا كله بشاعة حين نجمت طائفة المستشرقين ، بأحقادها وضغائنها وسفاهة ألسنتها وسرائرها ، وبدأوا يكتبون تاريخ الإسلام على أصولهم الفاسدة ، ثم قام فى الشرق العربى والإسلامى طائفة أخرى من أصحاب الأهواء ، من بين مسلم وغير مسلم ، فاتبعوهم وناصروهم ، وأذاعوا بعلمهم ، وأشادوا بمقدرتهم فى التقصىّ وكمال مناهجهم فى البحث ، فنقلوا إلى العربية ثمرة هذه الأحقاد والضغائن ، فى كتب ألفوها ، ونشروها وطارت بين عامة المثقفين ، يتلقفها الإعجاب بها ، والافتتانُ بأسلوب قصصها وحكايتها وتحقيقها !

وجاء هذا مع غلبة الحضارة المسيحية الأوربية حين تم لها سلطانها فى أرض الشرق والإسلام ، بالغزو الحربى والسياسى والأدبى والعلمى والاجتماعى والأخلاقى والثقافى عامة ، فعشش فى القلوب ثم باض ثم فرّخ كما يقول الجاحظ . وانتهى الأمر بالعرب والمسلمين أخيراً إلى أن يكون مصدرُ ثقافتهم وفكرهم عدواً لهم من حيث يعلمون ومن حيث لايعلمون . تجد ذلك فى كتبهم ومجلاتهم ، وصحفهم ، ومدارسهم ومعاهدهم ، وفى معاقل دينهم كالأزهر وغيره فسادَ من يومئذ الافتراء الكاذبُ سيادة تامة فى الحياة العقلية والأدبية ، وأصبح تاريخ الإسلام وأدبه وعلمه ، منظوراً إليه من صميم أهله المتحمسين بعين تبغض ، وقلب يعرض ، ونفس تزورُّ عنه ، ولم ينج من غائلة هذا الفساد إلا من عصم الله ، وهى قلة قليلة هى اليوم فى طريقها إلى الفناء ، إلى الانقراض ، إلى مصارع الأولين من أهل العلم والفقه والمعرفة .

من أجل ذلك البلاء المستفيض فى حياتنا ، وفى عقولنا ، وفى دراستنا أقول دائماً : إنه لا يغرنى من أحد دينه ولا تقواه ولا علمه ولا جهاده ولا فضله ولا عقله ، إذا لم يكن ذلك كله نابعاً من كتاب الله ، ومن الحياة الإسلامية المهتدية بهدى الله ورسوله ، غير مختلط ما استطاع ، بذلك الوباء الجائح الذى فرض علينا فى صورة مدنية أو حضارة أو علم أو ثقافة . ومن أجل ذلك لم أزل أثور عند كل بثق ينبثق من هذا الشر ، فى شأن أبى بكر رضى الله عنه قديماً ، وفى شأن عثمان رضى الله عنه ، وفى شأن صحابة رسول الله فى أيام فتنة عثمان حديثاً ؛ لأن استشراء ضغائن المستشرقين ، واستفحال منهج الحضارة الأوربية فى الجرأة على عباد الله بالكذب المتهجم ، وادعاء كل مدع ممن يحاول أن يكتب فى التاريخ أن يقول : إن هذا هو حق الأسلوب التاريخى . كل ذلك قد مس النفوس والعقول ، وأوقع فيها معانى لم تكن لتقع فيها ، لو أن حضارة الإسلام وأخلاقه وآدابه وما نبع من هذه الأخلاق والآداب من أساليب العلم والبحث والفكر بقيت هى السائدة فى حياتنا الأدبية والعقلية والعلمية والاجتماعية

* * *

إن المؤرخين الأوربيين ، ثم المستشرقين خاصّة ، ثم من لفّ لفّهم من المتخطفّين من فُتَات موائدهم من أهل هذا الشرق العربى والإسلامىّ يزعمون أنّ للتاريخ منهاجاً أو منهاجين أو ثلاثة أو عشرة ، هى كلّ ما يستطيع الباحثُ أن يعتمد عليه فى دراسة كلّ تاريخ وأنا أحبُّ أن أزعمَ أيضاً أن ليس فيها منهاج واحدٌ يصلح لدراسة تاريخ الإسلام ، بل أشك كل الشكّ فى صلاحه لدراسة تاريخ أىّ الناس كانَ

من غير المسلمين . وإذا احتاج المسلمون إلى إعادة كتابة تاريخهم ، لحاجتهم لاتنتهى — أو ينبغى ألا تنتهى — إلى الشعور بفقرهم إلى إمام يقتدون به مقلدين ، ثم يكونُ هذا الإمامُ منهجاً فاسداً نشأ فى تربة غريبة ، ودعت إلى نشأته أسبابٌ اجتماعية محدودة ، وعلل أخلاقية وعقلية معينة . كلا ، فإن تحكيم مثل هذا المنهاج ، وفى هذا العصر الذى لوثت ثقافته منابع الفكر كلها وكدرتها ، لا يؤدى إلا إلى شىء واحد : هو إفسادُ تاريخ أهل الإسلام إفساداً يشقُّ إصلاحه . وفى الكتب الحديثة التى كتبها مسلمون متحمسون فى هذا العصر برهانٌ لمن تطلب البرهان ، على مقدار ما ينجمُ من الضرر والفساد والعبث والتبديل والتحريف والافتراء ، والجهل — إن شئت — إذا انطلق كلّ حامل قلم ، ليكتب تاريخ أهل الإسلام ، على مثل هذه المناهج ، وبمثل هذا القصور عن معرفة الحقائق الصريحة فى الحياة الإسلامية ، وبمثل هذا التقليد البشع للمستشرقين وأكثرهم من اليهود ، وبمثل هذا الإغفال الشديد للفرق بين الأصول التى قامت عليها حضارة هذا الإسلام وانفردت بها دون سائر الحضارات ، والأصول التى قامت عليها حضارة سائر أمم الأرض ؛ وتناولها المؤرخون بالبحث والتنقيب والكتابة والتصوير .

وإذا كان الهاتف الذى هتف بالناس أنْ : « افهموا الإسلام فهماً جديداً » قذف بالمسلمين وبعقولهم وأهوائهم فى متاهة لا يعلم غايتها إلا الله وحده ، فإنه حين هتف أيضاً بهم أن : « افهموا تاريخ الإسلام فهماً جديداً » ، أوشك كما قلتُ أن يهوى بتاريخ أهل الإسلام وأئمته فى ظلمات مطبقة لا يطلع على خبئها إلا عالم غيب السموات والأرض .

وقد مارستُ دعوَى من اتبعوا هذا الهاتف سنين ، ولا أزال أمارسها وأتتبعها ، فأدركتُ أن شيمة هذا العصر الوبىء ، هى الغالبةُ دائماً على أصحاب هذا الهاتف : من تحطيم ، وتدمير ، وغلو ، وجرأة ، وإصرار على التحكم ، وضراوة فى التهجم ، وإغراق فى الرجم بالغيب ، وإفراط فى ثقة المرء بقدرة عقله واعتداده بنفسه . ومن أجل ذلك كرهتُ كلمة التجديد هذه ، وأنفتُ لنفسى أن أثق بالألفاظ التى يلقيها كثيرٌ من المتحمسين للإسلام ، إذا لم أجد عمل أحدهم وتطبيقه وسيرته ونهجهُ ، تؤيد دائماً دلالة هذه الألفاظ على معانيها . هذا ، إذا صحّ عندى أن منبع هذه الألفاظ هو دين الله نفسه ، كما نزل فى كتابه ، بسياقه وبيانه وعربيته غير مؤوَّل ولا مصروف عن وجهه ، وكما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فى سيرته وعمله وتأديبه وحديثه ، وكما جرت به سيرة أصحاب رسول الله ، الذين أقاموا دين الله فى الأرض ، ولزموا طاعة الله ورسوله ، وارتضاهم ربهم خلفاء فى أرضه ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها .

* **

ولعلك ترانى شديد الحرص على أن أجعل أخلاقَ الإسلام وآدابه وسننه وسائر ما يكون به الإسلام إسلاماً ، هى الأصلُ الذى لاغنى عنه لمن يتعرَّض لكتابة تاريخ أهل الإسلام . وترانى أكادُ أقطع بأن هذا هو المنهجُ لا غيرُه من مناهج البحث ، كما تعرف مناهج البحث فى العصر الحديث . وأقول لك : نعم ، و نعمة عين ، فأنا أنكر أن يكون فى الدنيا شىءٌ يسمى منهاجاً للبحث والفكر أو أسلوباً أو طريقة إلا وهو مُنبثق من سرّ النفس الإنسانية ، من تصوُّراتها ومآلفها ، من عِشرتها وعهدها بما يحيط بها ، من أسباب تصرُّفها فى خواطرها ، من دوافع نقدها للأشياء وتقديرها ، من استحسانها واستقباحها ، من دَواعى حبها وبغضها ، من كلّ ما تعيش به فى دخيلتها ، وتعاشر به ما يتصل بها ، بل إن العقل المجرّد نفسه ، لايستطيع أن يدرك الحق وحده ، ولا أن يستقلّ بمعرفته وبالبيان عنه ، ولا أن ينفرد بشىء يسمى تفكيراً ، متحليا عن جاراته من الطبائع والغرائز والسلائق ومن العادات والآداب ، ومما تسخطه النفس أو تحمدُه، ومما تحبه أو تكرهه ، بل إن أكثر علم الناس فى هذه الدنيا لا ينشق لهم طريقه ، إلا بما استقرّ فيهم من أخلاق وآداب وسنن متبعة ، بل إنّ اختلاف الأخلاق والآداب والسنن، أصلٌ أصيل فى اختلاف العلم ، ومفهوم العلم ، وطبيعة العلم ، بل إنّ الحضارات المتباينة ، بعلمها وفنونها وصناعتها وآدابها ، لم تتباين كل هذا التباين ، إلا من جراء تباين الآداب والأخلاق والسنن فى كل حضارة . فإذا أنا حرصتُ على أنْ أجعل أخلاقَ الإسلام وآدابه وسننه هى الأصلُ الذى لاينفك منه مؤرخ الإسلام ، فذلك لأن المنهاجَ الذى يتبعه الباحث لا يمكن إلا أن يكونَ صدى لما تقوم به حياته التى يعانيها فى دخيلة نفسه بالليل والنهار ، وفى السر والعلن ، وفى المنشط والمكره ، وفى الرضا والغضب .

والتاريخ ، فى زماننا ، ليس علماً على الحقيقة ، كما ترى فى الكيمياء والحساب والهندسة ، بل هو تفسيرٌ لحوادث خفية الأسباب ، مطمورة الجذور ، متعدّدة الدوافع ، كثيرة المحامل والوجوه ، متعلقة كل التعلق بحياة كل فرد عاش فى الفترةَ التى تريدُ أن تؤرخها ، شديدة الخضوع لعوامل لا يحصيها إلا الله وحده سبحانه . فما كان هذا شأنه وتعقيده ، واختلاف أسبابه ، وخفاء علله ودوافعه ، فإنّ منهاجَ دراسته لايقوم أبداً على مقاييس لا تختلُّ كمقاييس الرياضة أو التجربة ؛ بل هو يلقى المؤرخ بقدر هائل من الطبائع الإنسانية المتآلفة والمتنافرة ، والمتآخية والمتناحرة ، والمتفقة والمتناقضة ، والظاهرة والغامضة ، فلا معدَى له عن لقائها بقدر مثله من نفس تراحبَ إدراكها للطبائع والسجايا والأخلاق . وما دامَ الأمرُ قد انتقل من المقاييس المحدّدة

الضابطة ، إلى إدراك الطبائع الإنسانية البعيدة الغوْر ، الخفية السرّ ، المتباينة الصور ، بقدْر تباين صور البشر وألوانهم وأشكالهم وألسنتهم وأصواتهم وأهوائهم ونوازعهم ؛ فقد انتقل المنهاج كله من التحديد الضابط إلى التشتت المفزع الذى لا تدْرى ماذا تأخذُ منه أو تدَع . فلا مناص إذن لأى عاقل بعض العقل ، من الرجوع إلى شىء لايختلف ، يقومُ على أصل صحيح من هذا التقدير المخيف لاختلاف الطبائع ، ومهما التمس الإنسان شيئاً يَفِى بضبط هذا القدْر من التباين المتفجر ، فهو خليقٌ ألا يجده . فإذا أثبته العجز عنه فآثر أن يغفله لمجرد شهوة يشتهيها ، وهى أن يكتب للناس ويؤرخ لهم ، فهو عندئذ خليقٌ أن يضلّ فى تقديره ، وفى تصوره ، وفى حكمه ، وصار كل مايأتى به رجماً وظنوناً وأهواء وعبثاً وافتراء وتكذباً واقتفاء لما ليس له به علم ، وهذا الذى كان.

وليس على الأرض العاقلة شىء يمكنُ أن يعدّ ميزاناً عادلا لهذه الطبائع البشرية التى وصفنا ، إلا ميزانٌ واحدٌ لا غير ، هو الذى أنزلهُ ربُّ العالمين إذ يقول : « لقدْ أرْسلنا رُسلنا بالبينات وأنزَلنا معهمُ الكتابَ والميزَانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ » .

واهتداء البشر بالكتاب ، وفقههم لمعانيه ، واتخاذهم الميزان الذى أنزله الله على أنبيائه ورُسله ، أصلا يتعايشون به فى حياتهم ويتحاكمون إليه فى النظر والفكر ، وفى العلم والفقه ، وفى المعرفة والتقدير ، وفى القياس والاستنباط ، هو الوسيلة الوحيدة التى تضمن لصاحب الرأى أن يكون رأيه قريباً من الحقّ ، ويكون منهاجه قادراً بعضَ القدرة على لقاء هذه الكثرة الجياشة من الاختلاف فإن منزل الميزان للناس ليقوموا بالقسط ، هو الذى خلق الناس مختلفين ، وجعل لهم هذا الميزان بإزاء هذا الاختلاط

* * *

ولم يبق على الأرض العاقلة تنزيلٌ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، سوى كتاب واحد لاغير ، هو كتاب الله تبارك اسمه ، ثم بيان هذا الكتاب، وهو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فهما بجميع ما نزل فيهما ، وما يستنبطُ منهما ، غير مؤول عن حقه ، ولا مصروف عن وجهه ، ولا مضروب بعضه ببعض : أخرجا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من الظلمات إلى النور ، فجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً . فلما أطاعوا الله وأطاعوا رسوله ، واتبعوا ما أنزل إليهم وساروا بما استطاعوا مما أوحى إليهم من البينات والكتاب والحكمة أثنى عليهم ربهم بأفضل ثنائه سبحانه فقال لهم : « كنتم خيرَ أمة أخرجتْ للناس ، تأمرونَ بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . ثم نبأهم بعد بمانعتهم به فيما نزل

على موسى صلى الله عليه وسلم ، وفيما نزل على عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم من قبل أن يكونوا هم شيئاً مذكوراً ؛ فقال لهم فيما يتلى عليهم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة . ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » . صدق الله وكذب القوّالون

فهؤلاء الذين زكاهم ربهم وعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وبشرهم فى أواخر ما نزل على نبيهم : بآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم ، من سائر التابعين ومن تبعهم بإحسان ، هم الذين كان بهم تاريخ الإسلام تاريخاً ، وبما اتبعوا من آدابه وأخلاقه وسننه ، وبما كانوا به بشراً يتعاشرون فيتآلفون ويتنافرون ، وبما أخطأوا وأصابوا ، وبما عدلوا وأسرفوا ، وبما استغفروا إلى ربهم وتابوا ، وبما اجتهدوا فأحسنوا أو اجتهدوا فأساءوا ، وبكلّ ما تكون به الحياة الإنسانية حياةً مختلفة الأبدان والوجوه والصور والأعمار ، مختلفة الطبائع والغرائز والنوازع ، مختلفة الحاجات والدوافع ، مختلفة المساخط والمحامد ، مختلفة فيما يحبُّ وما يكره ، مختلفةً فيما يغضبُ ويرضى ، معدَّلة فى كل ذلك بضابط لم يوجد مثله فى تاريخ البشر : تقوى الله ، والتوبة إلى ربِّ العالمين . فقاموا بذلك كله إذ ألزمهم ربهم كلمة التقوى فى السر والعلن ، وعادوا إليه من عند زلاتهم توابين مستغفرين بالأسحار ، وعاشت هذه الأمة المنفردة فى تاريخ الجنس البشرى . وأنشأت تاريخها برضى الله عن بعض عملها ، وغضبة على بعضٍ ، وبعقابه لبعض أهلها ومغفرته لبعضٍ ، ولم يجعلهم ربهم أمة معصومةً من خطإ ، ولكنهم يخطئون ويتوبون ما انفسحت آجالهم ، يوماً بعد يوم وساعة بعد ســــاعة ، فيرحمهم ربُّهم ويتوب عليهم ، ويعاقبهم ببعض ذنوبهم « ولو يؤاخذُ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما تركَ على ظهرها مِنْ دابَّة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمى ، فإذا جاءَ أجلهمْ فإنّ اللهَ كانَ بعبادِهِ بصيراً » .

فمن غير الممكن — وأكاد أقول إنه المستحيل — أن يطيق إنسان لم يتأدب بما تأدبوا به فى أنفسهم ، وبما صار به تاريخهم تاريخاً فيه مشابه من تواريخ الأمم ، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف — أن يكون مصيباً أو مقارباً للصواب ، أو خليقاً بأن يدرك بعض الصواب ، إذا هو أراد أن يكتب تاريخهم على النهج

الذى نعرفه اليوم من كتابة التاريخ ، والذى تُرمى فيه الأحكام جزافاً بلا تقوى ولا ورع ، ولا مخافة من ظنّ السوء ، ولا هيبة من بهت الناس بما ليس فيهم ، ولا تأثم من الاجتراء على غيب لا يعلمه إلاّ العليم الخبير . والذى لم يجرّبْ هذه الآداب فى سريرة نفسه ، غير مستطيع أن يدرك مأتى وأعمال هؤلاء الناس ، ولا مقاطع أحكامهم ، ولا سيرة حكامهم ، ولا طبيعة حياتهم ؛ بل هو خليق أن يخلط ما جرى فى حياتهم وأيامهم ، بما جرى فى حياة غيرهم وأيامهم ، وأن يحكم على الذى كان يجرى بينهم سهلا يسيراً منظوراً إليه بما ينظر به إلى مجرد الاختلاف فى الرأى ، حكما جازماً قاطعاً مدمراً ، كأن الله وكل إليه الاطلاع على سرائر خلقه ، وفوض إليه أن يقضى فيهم بقضائه : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفرُ لمن يشاء ويعذبُ منْ يشاء ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .



المسلمون ...

المسلمون فما أذلهمو فى هذه الدنيا وهم كُثْرُ
جدُّوا فجدَّ زمانهم بهمو وتغيروا فتغير الدهرُ

أصول حضارة الإسلام

للأستاذ محمد أسد « ليوبولد فايس »

وكيل وزارة الخارجية الباكستانية لشئون الشرق الأوسط

ترجمها عن الإنجليزية « الأستاذ محمد محمود غالى »

« محمد أسد » هو صاحب مجلة « عرفات » التى كانت تصدر بالإنجليزية عن الإسلام ، ومؤلف « الإسلام على مفترق الطرق » ومترجم صحيح البخارى إلى الإنجليزية . نمساوى الأصل ، هجر وطنه إلى الحجاز حيث عاش سنين فى البقعة المباركة التى شهدت مولد الإسلام . وأسلم منذ ثلاثين عاماً قضى أكثرها بين مسلمى الهنـد ، وهو الآن فى الباكستان . ونحن نقدمه اليوم على هـذه الصفحات بالتحدث عن حضارة الإسلام ، ولعل مافى قوله من حكمة وسداد يرجع إلى استظهاره كثيراً من مظاهر الحضارات الأخرى ووجوهها واكتشافه أن حضارة الإسلام ظاهرة خارقة لا تخضع فى النقد التاريخى لشىء من نواميس الحضارات وقوانينها، وهى بذلك أغنى على التحليل التاريخى من أن تقاس بغيرها .

يمتاز تاريخ البشرية بنمو الحضارات وانحلالها ، وقد تقتصر هذه الحضارات حيناً على إقليم من الأقاليم أو جنس من أجناس البشر كحضارة قدماء المصريين مثلا . وقد تكون نتيجة جهود مشتركة لمجموعة مختلفة الأجناس فتتسع دائرتها بذلك حتى تشمل بقاعاً شاسعة الأرجاء ، والحضارة الغربية مثل قائم على ذلك ولا ندرى على وجه التحديد كيف تبدأ هذه الحضارات كلها على اختلافها وتنوعها . ولـكل حضارة من الحضارات عُدَّتُها من الأساطير والخرافات التى تحاول أن تستبين على ضوئها بدء نشوئها ومولدها، ولـكن هذه القوة من الأساطير والخرافات لا تستطيع أن تثبت هذه الظواهر الاجتماعية أو هذه الحضارات إلا بعد قيامها وتمامها لأن الأساطير والخرافات ليست سوى تبرير أملته الرغبات المستكنة فى نفوس البشر محاولة بذلك تفسير أحداث وقعت وانقضى زمانها وبعد عهد الناس بها .

فإذا نحينا هـذه الخرافات والأساطير جانباً فإنا لن نجد حينئذ دليلا تاريخياً صادقاً يرشدنا على وجه التحديد كيف بدأت حضارة من هذه الحضارات أو الزمن

الذى بدأت فيه . لأن أى حضارة من الحضارات تتبدى لنظر المؤرخين عند قيامها كائناً حياً سوياً الخلقة وتكون بذلك قد خلفت وراءها بعض مراحل تطورها فى ظلال ماض يستعصى على التعريف الدقيق .

فإذا حاول المؤرخ أن يمتد بنظره إلى ما وراء نضج حضارة ما واستوائها ، فقد يستبين صورة هذه الحضارة فى مراحلها الغضة الأولى ، ولكنه سوف يعجز عن أن يتبين توقيت ميلاد هذه الحضارة أو طريقة نشوئها على وجه محدد ولعل هذا العجز عن التقصى التاريخى راجع إلى أن الحضارات بوجه عام لا يمكن أن تولد كما يولد الأفراد ، بل إنها تنساب فى غير تمايز إحداها فى الأخرى دون أن تكون بين كل منها مرحلة انتقال بينة محددة .

ولقد نستطيع حقاً فى أحيان كثيرة أن نتبين نسبة حضارة ما فنردها إلى أصولها إذا تناولنا بالتحليل ما تركت من أساطير وعادات وخرافات وما خلفت من تراث فكرى شاركت فيه غيرها من الحضارات التى عاصرتها أو سبقتها ولكننا لا نستطيع أن نحدد أو نعين فترة الانتقال بين حضارة سلفت وأخرى تلتها نعنيها بالبحث والدرس والتمحيص ويصدق هذا القول على الحضارات كلها ، ما هو قائم منها وما اندثر وزال . فلا نستطيع مثلا أن نحدد بدء الحضارة الغربية الحديثة ، فإن كل ما ندريه عنها أنها تطورت شيئاً فشيئاً من حطام الحضارة الرومانية وامتزجت بدين شرقى هو المسيحية ، بعد أن عدلته وحورته طبقا لحاجات الغرب واستعداداته وظروف حياته ولكنا لا نستطيع أن نحدد على وجه دقيق متى اتخذت هذه الحضارة الجديدة المركبة طابعها المحدد المتميز . وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد أن ذلك لابد أن يكون قد تم فى أوائل العصور الوسطى فى مدى أربعة قرون أو خمسة على وجه التقريب ، ولا نستطيع أن نذهب فى التحديد إلى أكثر من ذلك ، بل ليس هناك من العلماء من يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً حقبة معينة من حقب التاريخ أو حتى قرناً بذاته ليقول هنا وتحت هذه الظروف بدأت الحضارة الغربية .

الواقع إذن هو أن الحضارة الغربية بدت فى الوجود وأبرزتها فى مواكب الزمان تطورات استطالت أحقابا طويلة فكانت مقوماتها الأساسية التى تتمثل فى نظرتها إلى الحياة الإنسانية والأخلاق وفضائل النفس ، وفى شرائعها وعاداتها وقوانينها الاجتماعية نتاج امتزاج بطىء لخليط من المؤثرات الفكرية مختلف أشد الاختلاف ، ولعناصر من الحضارات متباينة أشد التباين ، فلم يكن ما ورثته عن امبراطورية روما وما خلفته لها

المسيحية هو كل ما أثر على وحدد اتجاهها ، ولكن هذين المؤثرين اختلطا بما ورثته من تقاليد قبلية عن القوط والكلت فيما ورثت من مخلفات انحدرت مع الزمن من أعماق سحيقة قد يرجع الأصل فى عناصرها إلى منطقة أواسط آسيا .

وليست حضارة الرومان ذاتها أكثر وضوحاً أو تحديداً من سابقتها لأننا سنرى حين نرجع بها إلى أصولها الأولى أنها كانت نتاج امتزاج فكرى معقد متشابك يرجع بعضه إلى من نزل بإيطاليا من أقوام قبل الإيطاليين أنفسهم ممن كانوا يدعون أترسكيين Etruscans ، وكان هؤلاء كذلك عنصراً مركبا أشد التركيب ذا حضارة بدأت فى غالب الأمر فى آسيا الصغرى . . بينما يرجع بعض أصول حضارة الرومان إلى اليونان ومن تبق منهم فى آسيا الصغرى ، وإلى حضارة أخرى سميت حضارة المناويين Minoan كما جرى اصطلاح المؤرخين على تسميتهم بهذا الاسم . وحضارة المناويين حضارة مبهمة معقدة تمركزت فى جزيرة كريت . واستمدت جذورها من تراث المصريين وحضارتهم على أصح الأقوال .

وما قيل عن حضارة الرومان نستطيع أن نقوله كذلك عن حضارة الهندوس التى تمتد بها سدم الماضى إلى الشمال حتى أواسط آسيا وراء جبال بامير ، وإلى الجنوب حيث الدرافيون Dravidians وهم قوم يكتنف الغموض كذلك نشأتهم ومنبت حضارتهم ثم تسرى حضارة الهندوس فى أحشاء الماضى حتى تصل إلى السامرين فى أرض الجزيرة عبر موهنجدارو Mohenjodaro .

ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن حضارة إسرائيل التى ترجع فى أصولها عبر أحقاب من الزمن لا تحصى إلى صحارى بلاد العرب وإلى سهول الجزيرة الخصبة ، كما نستطيع أن نتبين أنها اتصلت اتصالا واضحاً وثيقاً بحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين والحيثيين . والحيثيون قوم يحوط حضارتهم غموض مطبق وإبهام كثيف . ونستطيع أن نرجع الحضارة الصينية كذلك فى أصولها إلى ما قبل التاريخ ، ونستطيع أن نتتبع ما نشأ عنها فى اليابان من حضارة التتار — البولينيزيين Tartaro-Polynesian

ولا تخرج حضارات بابل وإيران وآشور عما قررناه فيما سبقت الإشارة إليه من حضارات ، بل إن القول لينسحب على كل ما شاهد البشر من حضارات ، وكم فى تاريخ البشرية ، من حركات تفوق الحصر انفردت كل منها بلون خاص تميزت به واستقلت فدعوناها لذلك حضارات ومدنيات.

واضح إذن أننا مهما أوغلنا فى التنقيب والبحث فيما سلف من حضارات البشر فلن نجد توقيتاً معيناً نستطيع أن نحدده بدءاً لحضارة ما، أو تاريخاً لمولدها، ولا أن نعين حداً فاصلا يميز بين حضارة والت وأخرى أشرق عليها النور وتبدت فى الوجود.

ولكن هناك استثناء واحداً لكل ما أسلفنا من قبل، استثناء تكاد لغرابته تنذهل العقول وتنعقد الألسنة، فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت إلى الوجود من عالم الغيب دفعة واحدة، واستوت للناظرين قائمة على أصولها فى فترة محددة من تاريخ البشر. تلك ولا شك حضارة فذة من نوع فريد وإنها لحضارة الإسلام!

فلئن قامت كل الحضارات الأخرى ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضى بما حوى من ضروب الرأى وتيارات الفكر، واستغرقت فى تبلورها إلى شكلها الخاص وكيانها المحدد آماداً طويلة من الزمن، فقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار، وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة. فقامت فى مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعى الكامل، وله نهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع. ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضى ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة كانت وليدة حدث تاريخى فريد هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها إلى رجل فذ فى التاريخ هو محمد رسول الله. فلقد أدرك الذين آمنوا بالإسلام واتبعوا محمداً وصدقوا بالقرآن، فاتخذوه قاعدة حياتهم أن الدين الجديد الذى جاءهم به القرآن يتطلب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد فى الحياة وما ألفوه من مناهج السير فيها. فكان قبولهم لما جاء به — وهم أهل بادية — بداية حدث جديد فى حياة البشر وتاريخهم إذ أنهم أدركوا أن الإسلام وقد جاء نظاما شاملا للحياة قد افتتح حقاً حضارة جديدة، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الارهاص بها. فتبينوا كما تبين من جاء بعدهم من المؤمنين أن مبعث رسول الله كان إيذانا ببدء عهد جديد بكل ما ينطوى عليه هذا البدء من حقائق ومعان.

ولا ينبغى أن يفهم من ذلك أن الإسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضى فذلك فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه؛ لأن كل كائن عضوى لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء. والحضارات فى ذلك كائنات عضوية دون شك، ولن ندهش إذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله — على ما هو عليه من جدة فى النظر إلى الكون والحياة ومن استحداث نظام اجتماعى كامل — يتضمن كثيراً مما جاءت به الأديان من قبله

وأن نراه يتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التى كانت لدى من سلف قبله . ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الإسلام ، بل لقد كان القرآن الكريم ذاته أصرح ما يكون اعترافا بها وتسليما . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المنهاج الاجتماعى الذى رسمه الإسلام قد استبق جانباً من مظاهر الحياة العربية قبل البعثة . ولكننا يجب أن نتحرز من أن ينصرف بنا الفكر إلى أن هذا القدر الذى استبقى من حياة الجاهلية قد تسلل إلى جوهر عقائد الإسلام وغلب على عقل بنى الإسلام ، أو أن هذا الإبقاء كان إذعانا من الرسول لمـــا ساد بلاده وعصره من تقاليد ومعتقدات كما يدعى أهل الغرب ويرددون فى أكثر ما يكتبون . إذ أن كل ما يشارك فيه الإسلام الجاهلية من نظم الاجتماع وكل ما اتفق فيه مع ما ذهبت إليه اليهودية والمسيحية من فكر وآراء جزء لا يتجزأ من الإسلام من يوم أن دوى به صوت النبى العربى فى بلاد الجزيرة . ويرجع ذلك إلى أن الأصل الأول الذى قام عليه الإسلام ودعا إليه هو أن حياة البشرية وحدة تاريخية ثابتة متصلة الحلقات .

وإنا لنرى القرآن الكريم يحدثنا قبـــل أن يدور بخلد إنسان شىء عن نظرية التطور والارتقاء بأمد طويل أن الحياة ليست سلسلة من قفزات لا رابط بينها ، ولكنها عملية عضوية حية مستمرة . وينطبق هذا القول على الحياة العقلية — والفكر الدينى جزء منها — انطباقه على حياة بنى الإنسان . بل إن هذا البشر الممتاز الذى تنزل القرآن على قلبه لم يدع لنفسه اكتشاف أصول جديدة فى عالم الأديان ؛ لأن مهمة الرسول كانت حمل رسالة الله وتبليغ الناس حقائق الأديان السماوية التى عاشت فى ظلها البشرية منذ نشأتها فى أتم صورة وأكمل نظام . وظلت هذه الحقائق حقائق فى ذاتها وإن قصر الناس عن إدراكها فى زمن من الأزمان أو عدوا عليها بالمسخ والتشويه أو النسيان . ثم هو يؤلف على هدى هذه الحقائق نظاماً اجتماعياً كاملا يلائم مطالب البشر الحقة تمام الملاءمة ، ويصلح منهجاً يتبعه الناس فى حاضرهم وفى غدهم ومما يساير هذه النظرة إلى الحياة الإنسانية فى وحدتها واستمرارها أن يأتى الإسلام بكل فذ فريد مستحدث من أصول الفكر ، وأن يضم إلى ذلك بعض الأصول العقلية التى حواها الفكر القديم صراحة كذلك ، ولا يحدش هذا النظام الجديد أن تسرى هذه الأصول العقلية إلى حضارته الجديدة التى قامت على أسس من شريعة الإسلام .

ولا بد لى من أن أوضح هنا أن ما حرصت على التحدث عنه وترديده ودعوته « حضارة الإسلام » قد يبدو عليه بعض الخلط وقد يثير بعض الاضطراب إذا حمل

هذا التعبير على أنه أريد به أن يشمل كل ما أصاب المسلمون فى تاريخهم الطويل من ضروب التقدم وصور النهضات والحضارات، أو إن فُهم على أنى أعنى حين أتحدث عن « حضارة الإسلام » التحدث عن حضارة بغداد أيام العباسيين أو حضارة مصر فى عهد المماليك أو ما استنه مسلمو المغول من نظم الإدارة فى الهند أو ما وصل إليه العرب فى أسبانيا من صُوَرِ النهوض والتقدم فى العلوم والآداب والفنون

ولذلك فإنى أريد أن أوضح هنا منذ البداية أننى أعنى « بحضارة الإسلام » هذه النظرة الخاصة إلى الفضائل الأخلاقية، وهذا المنهاج الاجتماعى المتمايز، وهذا الأسلوب الذى رسمه الإسلام لحياة البشر، فلا أقصد بحضارة الإسلام حدثاً بذاته أو نهضة بعينها مما استحدثه المسلمون فى أى قطر من أقطارهم أو فترة من فترات تاريخهم.

ولاسبيل إلى القول بأن حضارة الإسلام — وقد استهلت عهدها استهلالا رائعاً منذ بزوغها من ثنايا التاريخ كاملة العناصر والأركان — قد وصلت إلى تمام شكلها ونمائها دفعة واحدة لأنها لابد أن تنمو وأن تتطور كما تنمو الكائنات الحية وكما تتطور، ولا يعنى النمو العضوى مجرد تطور فى كل موروث من الصفات، ولكنه يعنى كذلك اندماج الكائن الحى فيما حوله من أحداث خارجة عنه وانتفاعه بها. ولهذا كان من الطبيعى أن تتصل حضارة الإسلام خلال الزمن ببعض العناصر والمقومات الخارجة عنها والتى جاءتها من حضارات أخرى والتى أحدثت فى خلقتها الأولى بعض التغيير والتحوير، ولا يتعدى تأثير مثل هذه العوامل التى تحدثها البيئة فى نهضة من النهضات ما يتعرض له الطفل فى أطوار نموه من تأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة به، فكما لانستطيع كل مؤثرات البيئة أن تغير من بنية الطفل وخصائص تكوينه فى أساسه وجوهره من يوم لفظته أحشاء أمه إلى هذه الحياة الدنيا. فكذلك لاتستطيع المؤثرات الطارئة المتأخرة التى اعترت حضارة الإسلام أن تغير من خصائصها الأولى أى تغيير أساسى، فكان جل ما أصابته هذه المؤثرات هو تغطية هذه الخصائص والمقومات أو تعطيلها إلى حين.

لقد بدأت حضارة الإسلام إذن رغم كل هذه العوامل والظروف والمؤثرات كائناً حياً متكاملا متمايزا انبثق نجمها فكان ظهورها فى توقيت تاريخى محدد امتد زهاء ثلاثة وعشرين عاما هى هذه الحقبة التاريخية التى قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر هذه الحياة من يوم بعثته حتى لقى الرفيق الأعلى. وليس هناك فى التاريخ البشرى كله من حضارة فى القديم أو الحديث نستطيع أن نحدد تاريخ مولدها والظروف والعوامل التى صاحبت وجودها ونشأتها سوى حضارة الإسلام.

الشجرة المباركة ..!

قال صاحبى : أدعوة إلى الرهبانية وديننا دين كفاح ؟! قلت لا « يا أخا الحق » وإنما هى دعوة إلى التجرد « للحق وحده » من كل عالقة ، تجرداً يصفو به « النبع » فى أنفس أصحابه حتى يكون إقبالهم به على الناس إقبالا واحداً غير مختلف . .

هى دعوة إلى أن تكون الفكرة عند صاحبها السكن الرحب الآمن لفكره فى كل أحواله ، ولروحه فى كل مسارحها : إذا ناوشه رأى حكم فكرته . . . وإذا ساوره خاطر رده إليها . . .

بل أزيد فأقول : يجب أن تصبح الفكرة عند صاحبها طبعا يحكمه ، وعاطفة تأخذ بتلابيبه ، وهو لا يبلغ هذه الصحبة إلا إذا أصبح ملكا لفكرته ، لا يملكه غيرها : يحب بها ويبغض بها ، وذلك وحده هو « بلوغ الرشد » فى عمر الدعوات . « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم (الراشدون) فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وهذه حالة لا يصنعها هتاف ولا ورقة مكتوبة . . . ولا تزجى إلى الإنسان من غيره ولو كان غيره هذا فى الذرا علما وحكمة ، ولكنها تأتى بعد أن تدرك بذرة الحق القرارة من القلب ، وتتصل جذورها بحقيقة الإنسان ، وتتهيأ لها مسارب الرحمة من سر الله ، فيسرى الحق فى فروعها مسرى الماء ، وتحمل سمات الحق المشرقة حمل الثمر . . وتجد الجوارح أخلاقها أصيلة يانعة ، تتألق تألق الربيع ، وتتفح نفح الزهر : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .

* * *

لابد أن « يربى » الإيمان ياصاحبى تربية النبات ، وأن تختار له « التربة » التى تصلح له ، و « الطقس » الذى ينبت فيه . . . ثم « تحرث » له الأرض ، ويتعهد « بالرى » السواء الذى يترعرع به . . . ولا يبقى بعد إلا الزمن يفعل فعله ، وإلا حفظ الثمر على فرعه حتى يأخذ « حظه المقدور » من رحمة الله ، ويحين « موسم الحصاد » :

« إن الله بالغ أمره قد جعل لكل شىء قدرا » .

التشريع الجنائي الإسلامي

للأستاذ عبد القادر عوده

(٢)

الفصل الاول

فى أركان جريمة الزنا

٨ — تعريف الزنا : يعرّف الزنا عند المالكيين بأنه وطء مكلف فرج آدمى لا ملك له فيه باتفاق تعمداً [١] .

ويعرفه الحنفيون بأنه وطء الرجل المرأة فى القبل فى غير الملك وشبهة الملك [٢] .

ويعرّفه الشافعيون بأنه إيلاج الذكر بفرج محرم لعينه خال من الشبهة مشتهى طبعاً [٣] .

ويعرفه الحنابلة بأنه فعل الفاحشة فى قبل أو دبر [٤] .

ويعرفه الظاهريون بأنه وطء من لا يحل النظر إلى مجردها مع العلم بالتحريم ، أو هو وطء محرمة العين [٥] .

ويعرفه فقهاء الشيعة الزيدية بأنه إيلاج فرج فى فرج حى محرم قبل أو دبر بلا شبهة [٦] .

٩ — أركان جريمة الزنا : ظاهر مما سبق أن هناك اتفاقا على أن الزنا هو الوطء المحرم المتعمد ومؤدى هذا أن لجريمة الزنا ركنين أولهما : الوطء المحرم . وثانيهما : تعمد الوطء أو القصد الجنائى .

وسنتكلم على كل من هذين الركنين فيما يلى :

---

(١) شرح الزرقانى وحاشية البنانى ج ٨ ص ٧٤ ، ٧٥ — مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٩٠

(٢) شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٣٨ — الزيلعى ج ٣ ص ١٦٣ — البحر الرائق ج ٥ ص ٣ بدائع الصنائع ج ٣ ص ٣٣

(٣) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٢ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٥ — المهذب ج ٢ ص ٢٨٣

(٤) الإقناع ج ٤ ص ٢٥٠ — المغنى والشرح الكبير ج ١٠ ص ١٥١

(٥) المحلى لابن حزم الحادى عشر ص ٢٢٩ ، ٢٥٦

(٦) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦

الركن الأول :

الوطء المحرم

١٠ — الوطء المعتبر زنا : هو الوطء فى الفرج ، بحيث يكون الذكر فى الفرج كالميل فى المكحلة والرشا فى البئر . ويكفى لاعتبار الوطء زنا شرعا أن تغيب الحشفة على الأقل فى الفرج أو مثلها إن لم يكن للذكر حشفة ، ولا يشترط على الرأى الراجح أن يكون الذكر منتشراً .

ويعتبر الوطء زنا ولو كان هناك حائل بين الذكر والفرج مادام هـذا الحائل خفيفاً لا يمنع الحس واللذة . وإدخال الحشفة أو قدرها يعتبر زنا ولو دخل الذكر فى هواء الفرج ولم يمس جلده ، كما أنه يعتبر زنا سواء حدث إنزال أم لم يحدث[1] .

والقاعدة أن الوطء المحرم المعتبر زنا هو الذى يحدث من غير نكاح ، فكل وطء من هذا القبيل زنا عقوبته الحد ، مالم يكن هناك مانع شرعى من هذه العقوبة .

أما إذا حدث الوطء أثناء قيام النكاح فلا يعتبر الفعل زنا ولو كان الوطء محرماً لأن التحريم فى هذه الحالة عارض ، فوطء الرجل زوجته الحائض أو النفساء أو الصائمة أو المُحْرِمة ، أو التى ظاهر منها ، أو آلى منها كل ذلك محرم يعاقب عليه بالتعزير ولكنه لا يعتبر زنا[2] .

وإذا لم يكن الوطء على الصفة السابقة فلا يعتبر زنا يعاقب عليه شرعاً بالحد ، وإنما يعتبر معصية يعاقب عليها بعقوبة تعزيرية ملائمة[3] ، ولو كانت المعصية فى ذاتها مقدمة من مقدمات الزنا كالمفاخذة : أى الإيلاج بين الفخذين وكالمباشرة خارج الفرج .

---

(١) راجع فى كل ما سبق شرح الزرقانى ج ٨ ص ٧٤ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١١٥ — حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ١٩٤ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٥ نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٢ — المغنى ج ١٠ ص ١٥١ — الإقناع ج ٤ ص ٢٥٣ — المحلى ج ١١ ص ٢٢٩ ٣٩١ وما بعدها — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) راجع فى كل ما سبق شرح الزرقانى ج ٨ ص ٧٩ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٤٠ حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ١٩٤ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٦ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٤ — المغنى ج ١٠ ص ١٥١ — بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٥ — المحلى ج ١١ ص ٢٥ ، ٢٥٦ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٣) راجع ما كتبناه عن المعاصى والحدود والتعازير فى الجزء الأول ص ٧٨ و ١٢٦ وما بعدها

والقاعدة فى الشريعة أن من حرمت مباشرته فى الفرج بحكم الزنا أو اللواط حرمت مباشرته فيما دون الفرج بشهوة لقوله عز وجل . « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » المؤمنون (٥ — ٧) .

وتحرم الشريعة الخلوة بامرأة غير محرم وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « لايخلون أحدكم بامرأة ليست له بمحرم فإن ثالثهما الشيطان » فإذا حرمت الخلوة بها فلأن تحرم المباشرة أولى لأنها أدعى إلى الحرام .

ومن القواعد الأصولية فى الشريعة قاعدة أن ما أدى للحرام فهو حرام ، فإن فعل الجانى مالا يوجب الحد فعقوبته التعزير ، سواء كان مافعله وطئاً لم تتم شروطه كالإيلاج بين الفخذين أو فى الفم ، أو كان مافعله ليس وطئاً كالخلوة بالمرأة الأجنبية وكالعناق والقبلة والنوم معها فى فراش واحد ، لأن هذه جميعاً أفعال محرمة ، فضلا عن أنها من مقدمات الزنا وتؤدى إليه .

واستمناء الرجل بيد امرأة أجنبية ليس زنا ، وكذلك إدخال الرجل إصبعه فى فرج امرأة ، وإنما كلا الفعلين معصية فيها التعزير .

ولو عرضت المرأة فرجها شيئاً دون أن تدخله أو لامست فرجها بيدها حتى ينزل فذلك مكروه ولا معصية فيه ، وبالتالى لاعقوبة عليه ، ومثل ذلك مالو استمنى الرجل بيد نفسه لأن مس الرجل ذكره بشماله مباح ومس المرأة فرجها مباح ، فإذا هو مباح فليس هناك زيادة على المباح إلا تعمد الإنزال وليس ذلك حراماً أصلا ، وقد تكلم الفقهاء فى هذا فكرهته طائفة وأباحته أخرى ، وحجة الكارهين أنه ليس من مكارم الأخلاق ، ولامن الفضائل[1] ، ولكن الزيديين يعتبرون الفعل معصية يعاقب عليها بالتعزير .

ويلاحظ أن الشريعة تفرق بين الوطء وما دونه ، فتعاقب على الأول بعقوبة الحد وتعاقب على الثانى بعقوبة تعزيرية ، ولكن الشريعة مع هذا تعتبر الفعل فى الحالين جريمة تامة ، ولاتعتبر أحدها جريمة تامة والثانى شروعاً فيها كما هو الحال فى القوانين الوضعية[2] .

(١) راجع فى كل ماسبق حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٢١٥ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٠ أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٥ — المهذب ج ٢ ص ٢٨٦ — الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٠٦ — الإقناع ج ٤ ص ٢٥٣ — المغنى ج ١٠ ص ١٦٣ — المحلى ج ١١ ص ٣٩٢ شرح الأزهار رابع ص ٣٣٦ والثانى ص ١٩٧ .

(٢) فصلنا الكلام على هذه الملاحظة فى الجزء الأول من ص ٣٤٣ — ٣٤٦ .

١١ – الوطء فى الدبر : ويستوى عند مالك والشافعى وأحمد والشيعة الزيدية أن يكون الوطء المحرم فى قبل أو دبر لأنثى أو رجل ، ويشاركهم فى هذا الرأى محمد وأبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة . وحجتهم أن الوطء فى الدبر مشارك للزنا فى المعنى الذى يستدعى الحد وهو الوطء المحرم ، فهو داخل تحت الزنا دلالة ، فضلا عن أن القرآن سوى بينهما فقال جل شأنه : « إنكم لتأتون الفاحشة » وقال : « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » وقال : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » وقال : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » فجعل الوطء فى الدبر فاحشة ، والوطء فى القبل فاحشة ، فسمى أحدهما بما سمى به الآخر . كذلك روى أبو موسى الأشعرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان[1] » .

ويرى أبو حنيفة أن الوطء فى الدبر لا يعتبر زنا سواء أكان الموطوء ذكراً أو أنثى وحجته أن الإتيان فى القبل يسمى زنا والإتيان فى الدبر يسمى لواطا واختلاف الأسماء دليل على اختلاف المعانى ، ولو كان اللواط زنا ما اختلف أصحاب الرسول فى شأنه ؛ فضلا عن أن الزنا يؤدى إلى اشتباه الأنساب وتضييع الأولاد وليس الأمر كذلك فى اللواط ؛ كما أن العقوبة تشرع دائما لما يغلب وجوده ، والزنا وحده هو الغالب لأن الشهوة المركبة فى الرجل والمرأة تدعو إليه ، أما اللواط فليس فى طبيعة المحل ما يدعو إليه[2] .

أما الظاهريون فلا يرون اللواط زنا وإنما يرونه معصية فيها التعزير وحجتهم أن اللواط غير الزنا وأنه لم يرد نص ولا أثر صحيح يعطى اللواط حكم الزنا[3]

١٢ – وطء الزوجة فى دبرها : ومن المتفق عليه أن إتيان الزوجة فى دبرها لا يعاقب عليه بعقوبة الحد لأن الرجل يملك وطء زوجته ولأنها محل للوطء . ولكن الفقهاء اختلفوا فى تكييف الفعل ، فيرى أحمد وأبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة أن الفعل زنا يعاقب عليه أصلاً بعقوبة الحد ، ولكن هذه العقوبة تدرأ الشبهة

---

(١) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٧٥ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٦ — المغنى ج ١٠ ص ١٦٠ شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ — بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٤ .

(٢) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٤ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٠ .

(٣) المحلى ج ١١ من ص ٣٧٠ إلى ٣٨٥ .

الملك وللاختلاف فى حلية الفعل[1] ومن ثم يعاقب على الفعل بعقوبة تعزيرية .

ويرى المالكيون والشافعيون والشيعة الزيدية أن الفعل لا يعتبر زنا لأن الزوجة محل لوطء الزوج وللزوج أن يستمتع بها ، ولكن المالكيين والزيديين يرون أن الفعل مع هذا محرم ويعاقب عليه بعقوبة تعزيرية . أما الشافعيون فلا يرون التعزير على الفعل إلا عند العودة له بعد نهى الحاكم عنه ، فالجريمة عندهم جريمة اعتياد ولا تقع إلا بعد النهى عنها فإذا لم يكن نهى فلا عقاب ، على أن بعضهم يرى العقوبة على تكرار الفعل ولا يصرح باشتراط النهى عن الفعل ، ومعنى هذا أن الفعل عندهم محرم لاشك فى تحريمه فلا حاجة لأن ينهى عنه الحاكم .

ويرى أبو حنيفة أن الفعل لا يعتبر زنا للأسباب التى سبق بيانها ولكنه معصية يعاقب عليها بعقوبة التعزير .

وكذلك الأمر عند الظاهريين فهم لا يعتبرون الإتيان فى الدبر بصفة عامة زنا ولكنهم يرونه معصية يعزر عليها[2] .

١٣ — وطء الأموات : ووطء المرأة الأجنبية الميتة لا يعتبر زنا عند أبى حنيفة ، وكذلك استدخال المرأة ذكر الأجنبى الميت فى فرجها ؛ وهذا أيضاً رأى مذهبى الشافعى وأحمد ؛ والقائلون بهذا الرأى يوجبون التعزير فى الفعل ، وحجتهم أن الوطء فى الميتة ومن الميت كلا وطء لأن عضو الميت مستهلك ، ولأنه عمل تعافه النفس ولا يشتهى عادة ، فلا حاجة إلى الزجر عن الفعل ؛ والحد إنما يجب للزجر . وعلى هذا الرأى الشيعة الزيدية[3] :

والرأى الثانى فى مذهبى الشافعى وأحمد يرى أن الفعل يعتبر زنا يجب فيه الحد إذا لم يكن بين زوجين لأنه وطء محرم بل هو أعظم زنا وأكثر إثما ، حيث انضم إلى الفاحشة هتك حرمة الميت[4] ، وأصول الظاهريين يقتضى أن يكون رأيهم متفقا مع هذا الرأى . .

---

(١) يعتبر الفقهاء القائلون بالشبهة أن اختلاف الفقهاء فى حل الفعل وحرمته يعتبر بذاته شبهة تدرأ الحد .

(٢) راجع كل ماسبق مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٩١ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٠ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٤ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٦ — المغنى ج ١٠ ص ١٦٢ المحلى ج ١١ ص ٣٧٠ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦

(٣) شرح فتح القدير رابع ص ١٥٢ — نهاية المحتاج سابع ص ٤٠٥ — المغنى ج ١٠ ص ١٥٢ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦

(٤) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٥ — المغنى ج ١٠ ص ١٥٢

ويرى مالك أن من أتى ميتة فى قبلها أو دبرها حال كونها غير زوج له فإنه يعتبر زانيا ويعاقب بعقوبة الزنا لالتذاذه بذلك الفعل ؛ بخلاف من وطىء زوجته الميتة فإنه لا حد عليه ، وبخلاف إدخال المرأة ذكر الميت غير زوج فى فرجها فإنها تعذر ولا تحد فيما يظهر لعدم اللذة (١) .

١٤ — وطء البهائم : ووطء البهائم والحيوانات على العموم لا يعتبر زنا عند مالك وأبى حنيفة ولكنه معصية فيها التعزير ، وفى حكمه أن تمكن المرأة من نفسها حيوانا كقرد مثلا ، ولا يرون الفعل زنا لأن اعتباره كذلك يوجب فيه عقوبة الحد وهى مشروعة للزجر ، وإنما يحتاج للزجر فيما طريقه منفتح سالك وهذا ليس كذلك لأنه لا يرغب فيه العقلاء ولا السفهاء وإن اتفق لبعضهم ذلك لغلبة الشبق فالفعل إذن لا يفتقر إلى الزجر لزجر الطبع عنه .

وللشافعى وأحمد رأيان أرجحهما يتفق مع رأى أبى حنيفة ومالك ، والثانى يعتبر الفعل زنا ولكنه يرى أن العقوبة عليه القتل فى كل الأحوال ، وسند هذا الرأى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة » وهو حديث لا يصححه الكثيرون .

وبعض الشافعيين يعتبر الفعل زنا قياساً على إتيان الرجل المرأة ويجعلون عقوبة المحصن الرجم وعقوبة غير المحصن الجلد والتعزير ، وهذا الذى يراه بعض الشافعيين هو الرأى الراجح فى مذهب الشيعة الزيدية وإن كان بعضهم يرى ما يراه مالك وأبو حنيفة .

والشافعيون والحنابلة يرون أن المرأة التى تمكن من نفسها حيواناً عليها ما على واطىء البهيمة . على أن بعض الشافعيين يصرحون بأن ليس على المرأة إلا التعزير .

ويرى الحنابلة فى كل الأحوال قتل البهيمة المأتية سواء عذّر الواطىء أو قتل ، ومن يرى من الشافعيين قتل الواطىء يرى أيضاً قتل البهيمة . أما الزيديون فيكرّهون لحمها وشرب لبنها ولا يرون قتلها .

ويرى الظاهريون أن واطىء البهيمة ليس زانياً لأن وطء البهائم ليس زنا ولم يرد نص بإلحاقه بالزنا ، ولكن لما كان وطء البهيمة محرماً أصلا ففاعل ذلك فاعل منكر ومرتكب لمعصية وعقوبته التعزير .

---

(١) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٧٦ .

فى التاريخ ...

فكرة ومنهاج

للأستاذ سيد قطب

(٢)

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية ؛ والمسلمون جماعة من بنى الإنسان فى حيز من الزمان والمكان . والإسلام رسالة كونية بشرية غير محدودة بالزمان والمكان . . .

فإن التاريخ الإسلامى لا يمكن فصله من التاريخ الإنسانى . وقد تأثرت تلك الفترة — من غير شك — بتجارب البشرية كلها من قبل ، وبخاصة تلك العوامل التى كانت واقعة عند مولد الإسلام ، ثم أثرت بدورها فى تجارب البشرية من بعد ، وبخاصة تلك الجهات التى امتدت إليها أو جاورتها .

فلا بد إذن عند كتابة التاريخ الإسلامى من الإلمام بالصورة التى انتهت إليها تجارب الإنسانية قبيل مولد الإسلام ، والحالة التى صارت إليها المجتمعات البشرية فى الأرض وبخاصة من ناحية العقائد الدينية وسائر ما يتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات . ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية وما يتعلق بها من نظم الحكم وسياسة المال وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار . كى تتبين على ضوئها حقيقة دور الإسلام وطبيعته . ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولا أو رفضاً ، وتصور أسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ، وعناصر التفاعل والتدافع والتلاقى والانعكاس على مر الأيام .

وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضرورياً ، فإن الإلمام بوضع الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها من كافة نواحيها أكثرضرورة بوصفها مهد الإسلام الأول من جهة ، ومركز التجمع والانسياح من جهة أخرى .

فهل كانت مصادفة عابرة أن يظهر هذا الرسول بهذا الدين فى هذا الموضع من الأرض فى هذا الزمان ؟ أم أن هنالك نظاما مقدوراً ، وقصداً مقصوداً ، وتدبيراً معيناً ، وترتيباً موضوعياً ، لتلتقى هذه الظواهر كلها حيث التقت ، كى تؤدى دوراً معيناً ، ليس أقل نتائجه تخطيط خريطة العالم فى عالم الظاهر وفى عالم الشعور على هذا الوضع الذى صارت إليه الأمور ، منذ ذلك التاريخ البعيد !

ولعل هذا الخاطر أن يسوق إلى دراسة « محمد الرسول » فى هذا السياق الكونى للتاريخ . فلعل فى شخصه وفى نسبه وفى بيئة حياته ، وفى تقاليد بيئته . . وفى سائر ما يحيط بالفرد الإنسانى من مقومات . عوامل مقصودة ، وموافقات مدبرة ؛ وأنها لم تكن مصادفة عابرة أن يشار إليه من بين الجموع البشرية الحاشدة ، وأن يقال له : أنت . فانتدب لهذا الحدث الكونى الذى لم يسبق ولم يلحق بنظير .

ولعله كذلك أن يسوق إلى دراسة طبيعة هذا الحدث ؛ والفكرة الكلية التى يتضمنها قبل البدء فى دراسة الأحداث والانقلابات العالمية التى تمت على أساسها .

وبذلك تتهيأ للقارىء لمثل هذا التاريخ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التى نشأت عنها الاستجابات التى وقعت بالفعل فى تاريخ الإسلام فى الفترة التى تلت ظهوره كما يتهيأ له تفسير هـذه الاستجابات تفسيراً صحيحاً ، مستكملا لكل عناصر الحكم والتقدير .

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجاوب فى ضمائر الأشياء والأشخاص ، والأزمان والأحداث . ويتصل بناموس الكون ، ومدارج البشريه ، ويصبح كائناً حياً ، ومادة حياة .

ومتى استقام البحث على ذلك المنهج الذى أسلفنا فى « مقدمات التاريخ الإسلامى » وبرزت تلك المقومات الأساسية لطبيعة الدعوة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة البيئة التى استقبلت الدعوة واستقبلت الرسول ، وطبيعة المجتمع الإنسانى الذى كان يعاصر مولد الإسلام ، وطبيعة العقائد والأفكار التى كانت تسوده يومذاك .

متى برزت تلك المقومات الأساسية ، سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصيرورتها ، وأمكن تصوير وتصور خطوات الدعوة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الخطوات التى تسير متأثرة بتلك المقومات كلها ، وتفاعل بعضها مع بعض . ويتسر لنا وللناس فى هذا الجيل أن نعرف كيف اختار الرسول رجاله ، ومن أية طينة كان هؤلاء الرجال ؟ وكيف صاغ الرسول رجاله ، وكيف أعدهم للمهمة العظمى ؟ وكيف بنى الرسول نظامه ، وعلى أى الأسس قام هذا النظام ؟ وكيف تحولت الجزيرة العربية مهداً لهذا الدين الجديد ، أو لهـذا النظام الجديد ؟ وماذا كان فى طبيعتها وفى ظروفها وفى رجالها وبيوتها وعشائرها ، وفى علاقاتها الاجتماعية ، وملابساتها الاقتصادية والجغرافية والحيوية . . من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته ؟ . .

إلى آخر هذه المباحث التى تصور المرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، أو من تاريخ الإسلام والتى تصح تسميتها باسم . « الإسلام على عهد الرسول » .

ثم تجىء المرحلة الثانية . مرحلة « المد الإسلامى » . . ذلك عند ما انساح الإسلام فى مشــارق الأرض ومغاربها . عندما فاض ذلك الفيض الانفجارى العجيب الذى لم يعرف له العالم نظيراً فى سرعته وفى قوته . لا من ناحية الفتح العسكرى وحده ، ولـكن من ناحية التأثير الروحى والفـكرى والاجتماعى أيضاً : أى من الناحية الإنسانية الشاملة ، التى شهدت تحولا كاملا فى خط سير التاريخ على مولد هذا الدين الجديد ، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب . !

وهنا تبدو قيمة المنهج الذى أشرنا إليه . ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء ، التى قام بها الإسلام فى تلك الرقعة الفسيحة التى امتد إليها ، وتفاعله مع الأفـكار والعقائد التى كانت سائرة فيها ، ومع النظم الاجتماعية التى كانت تظللها ، ومع الظروف الاقتصادية ، والمخلفات التاريخية ، والملابسات الإنسانية ، فى أخصب بقاع الأرض ، وأكثرها حضارة فى ذلك الزمان .

والمد الإسلامى لم يقف عند الحدود التى وصلت إليها فتوحاته العسـكرية . فلقد امتدت الموجة الفـكرية ، والحضارة التى تكونها إلى ما وراء حدود العالم الإسلامى قطعاً . ولا بد من دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود . دراستها طرداً وعكساً فى حياة العــالم الإسلامى ذاته ، وفى حياة العالم الإنسانى كله . فقد أخذ هذا العالم من الإسلام وأعطى ، وقد تأثر به وأثر فيه . ودراسة هــذه التفاعلات فى ضوء المنهج الذى صورنا خصائصه كفيلة بأن تنشىء صورة من التاريخ غير مسبوقة ، ذات حيوية خاصة ، وذات طابع خاص ؛ بل كفيلة بأن تنشىء صورة للعالم الإنسانى وخطواته الحية مختلفة قليلا أو كثيراً عن الصورة التى اعتاد الغربيون أن يرسموها ، والتى اعتدنا نحن أن نراها !

ثم يجىء دور «انحسار المد الإسلامى». وعلى ضوء هذا المنهج وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الداخلية والخارجية جميعا. كم من هذه العوامل من طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى ، وكم منها من صنع المسلمين أنفسهم ، وكم منها لرد الفعل فى العالم غير الإسلامى ؟ ثم هل كان هذا الانحسار شاملا أم جزئياً ؟ وسطحياً أم عميقاً ! وما أثر هذا الانحسار فى خط سير التاريخ ،

وفى تكييفه أحوال البشر ، وفى قواعد التفكير والسلوك ، وفى العلاقات الدولية والإنسانية ؟ وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها فى الإسلام ؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامى وظهور هذا المد الأوربى الذى ما تزال تظلنا بقاياه .

ومن ثم يصبح الحديث عن « العالم الإسلامى اليوم » طبيعياً وفى أوانه ، وقائما على أسسه الواضحة الصريحة ؛ وليس حديثا تمليه العاطفة أو التعصب من هذا الجانب أو ذاك ويصبح التاريخ الإنسانى فى — ضوء منهجنا الخاص — مسلسل الحلقات ، متشابك الأواصر ، ويتحدد دور الإسلام فى هذا التاريخ فى الماضى وفى الحاضر ، وتتبين خطوطه فى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر .

***

ولكن . لماذا تجب إعادة كتابة التاريخ الإسلامى على أساس هذا المنهج وهذا النسق وهذا الاتجاه ؟

سؤال فى وقته المناسب ، وجوابه ضرورى ، وأسبابه معقولة .

إن هنالك أكثر من داع لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى على هذا النهج الجديد . لمصلحة الحقيقة ، ولمصلحة الأمة الإسلامية ، ولمصلحة العالم الإنسانى .

لقد تبين من مقدمات هذا الحديث أن التاريخ الإسلامى الذى بين أيدى الناس فى مشارق الأرض ومغاربها إما أنه مبعثر فى المراجع العربية القديمة — وهذه يصعب الانتفاع بها للقارىء المعاصر بصفة عامة ، ويتعذر بالقياس إلى غير العارفين باللغة العربية — وإما أنه فى صورة دراسات منظمة ولكنها معروضة من زاوية النظر الغربية ، التى كشفنا عما فيها من نقص وقصور — على فرض النزاهة العلمية المطلقة وهو مالا يمكن ضمانه فى حالات كثيرة .

ومن ثم فالحقيقة وحدها تحتم علينا أن نعيد كتابة التاريخ الإسلامى من زاوية أخرى . فإن لم تكفل هذه الزاوية رؤية أكمل وأدق وأعمق ، فهى على الأقل تكفل توسيع مدى الرؤية وجوانبها ، عند موازنتها أو ضمها إلى الزاوية الغربية التى يعتمد الناس عليها ، ونعتمد نحن أيضاً عليها ، فيما نكتبه فى العصر الحديث !

هذه واحدة . والثانية أننا نحن — الأمة الإسلامية — إنما ننظر الآن إلى أنفسنا وإلى سوانا بعدسة صنعتها لنا أيد أجنبية عنا . أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا . أجنبية عن مشاعرنا وإدراكنا . أجنبية عن فهمنا للأمور وإحساسنا بالحياة وتقديرنا للأشياء ..

ثم هى بعد ذلك كله مغرضة — فى الغالب — تريد لنا الشر لا الخير . لأن مطامحها ومطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية [illegible] كلها تدفع بها دفعاً لأن تبغى لنا الشر ، لأن خيرنا لا يتفق مع أطماعها ، ولأن مصالحنا تعطل مصالحها .

وحتى على فرض تجرد هذه الأيدى التى تكتب لنا تاريخنا من الغرض والهوى ، فإن أخطاء المنهج الذى تتبعه كفيلة بأن تشوه الحقائق التاريخية فى غير صالحنا . وصالحنا فى أن نرى حقيقة دورنا فى تاريخ البشرية ؛ وأن نعرف مكاننا فى خط سير التاريخ ؛ وأن نتبين قيمتنا فى العالم الإنسانى ، وليست فائدة هذا فائدة نظرية فكرية مجردة ؛ بل إنها أكبر من ذلك وأشمل ، فعلى ضوئها يمكن أن نحدد موقفنا الحاضر ، ودورنا المقبل ، وأن نسير فى أداء هذا الدور على هدى ومعرفة بالظروف ، والعوامل العالمية المحيطة بنا ، وبمقدار الطاقة التى نواجه بها هذه الظروف والعوامل

ونحن ندرس فى مدارسنا ومعاهدنا على وجه الخصوص تاريخاً إسلامياً مشوها ، وتاريخا أوربيا مضخما ؛ لا عن مجرد خطأ غير مقصود ، ولكن عن نية مبيتة من الاستعمار الغربى الذى يهمه أن لا نجد فى تاريخنا مانعتز به ، وأن نرى أوربا على العكس هى صاحبة الدور الأول فى التاريخ الإنسانى فإذا يئسنا من ماضينا ، واستصغرنا دورنا فى حياة البشرية ؛ وامتلأت نفوسنا مع ذلك إعجابا بالدور الذى قامت به أوربا وإكباراً للرجل الأبيض . . سهل قيادنا على الاستعمار ، وتطامنت كبرياؤنا القومية ، وذلت رقابنا للمستعمرين . . وتحت تأثير هذه العوامل كتب التاريخ الذى ندرسه فى مدارسنا ومعاهدنا بوجه خاص .

وإعادة كتابة التاريخ الإسلامى على النهج والنسق الذى وصفناه ، هو وحده الكفيل بأن يكشف هذه الأباطيل ، وأن يثبت حقيقة الدور الذى أداه الإسلام ، والدور الذى أدته الحضارة الأوربية ، بعد ما يصور طبيعة هذا الدين وطبيعة النظام الذى ينبثق منه ومدى ما منح البشرية من الخير والتقدم ، وضخامة الدور الذى أداه لبنى الإنسان .

والثالثة أنه ليس من مصلحة هذه الإنسانية أن ترى الحياة كلها من زاوية واحدة لا تكشف عن كل جوانبها ، وأن تسودها فكرة خاطئة عن ماضيها وحاضرها ؛ وأن تجهل الدوافع الكاملة لسيرها وتحركها ، والقيم الأساسية لحياتها وحضارتها . . وإن هذا الجهل لينشىء أخطاء عميقة الأثر لا فى التصور والتفكير فحسب ، ولكن كذلك فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفى علاقات الكتل الدولية بعضها ببعض . كما ينشىء أخطاء بعيدة المدى فى تكييف سياسة كل أمة وتوجيهها .

هذه الأخطاء ينشأ معظمها من سوء دراسة التاريخ البشرى ؛ وسوء تقدير الدور الذى قام به الإسلام ، والذى يمثله العالم الإسلامى ، هذا العالم الذى يمثل وحدة إنسانية تابعة لها كل خصائصها المستقلة ، ويمثل قوة إنسانية ثابتة لا يؤثر ضعفها العسكرى الطارىء إلا تأثيرا عارضا فى وزنها الحقيق .

ولهذا التصحيح قيمته فى حساب المصلحة الإنسانية العامة . وكم لأخطاء التاريخ من أثر فى إقامة الحواجز بين بعض الأمم وبعض ، وبعض العناصر وبعض ، وبعض الكتل وبعض . وكم لها من أثر فى سوء تقدير الجماعات للجماعات ، والأجناس للأجناس ، والأفراد للأفراد فضلا عن سوء التقدير للأفراد والمبادىء والحضارات . . وكل هذا يؤذى البشرية فى حاضرها ويؤذيها فى مستقبلها . ومن واجب القادرين إزالته وإزالة آثاره بالتصحيح الواجب ، والتعريف المستنير .

وبعد فإنه ينبغى أن يقال ، إن دراسة من هذا الطراز وعلى هذا النسق لن يكون من برنامجها تناول الحوادث التاريخية بالتسلسل الحرفى والتفصيل الوافى . فوظيفتها الأساسية أشبه شىء بوظيفة الخط البيانى ، يشير ولا يحصى ، ويرشد ولا يستقصى . . وبعبارة أخرى إن وظيفة دراسة من هذا النوع هى محاولة إيجاد عقلية تاريخية معينة ، وصورة تاريخية خاصة ، تفيد الذين يتناولون الحوادث التاريخية بالتفصيل ، والشخصيات التاريخية بالتحليل .

وما من شك أن استقرار هذا النهج فى حقل الدراسات التاريخية ؛ سيعين على وضوح خصائص الشخصية الإسلامية . والدور الإسلامى فى حياة البشرية ؛ الأمر الذى من شأنه أن تحلل الشخصيات الإسلامية بل الشخصيات الإنسانية ، فى سياق صحيح .

إن قيمة هذا النوع من الدراسة أن يقيم النهج ، ويشرع السنن ، ويرسم الطريق فإذا نجح فى أداء مهمته كان ذلك توفيقاً أى توفيق (١) .

---

(١) أشرنا فى العدد السابق إلى أن جماعة مسلمة قد تألفت لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفق هذا المنهج . وقد قسمت الجماعة حقول البحث إلى المراحل التالية : « مقدمات التاريخ الإسلامى » « الإسلام على عهد الرسول » . « المد الإسلامى » . « الانحسار الإسلامى » . « العالم الإسلامى اليوم » . والجماعة مؤلفة من الأساتذة . الشيخ صادق عرجون ، والدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور عبد الحميد يونس ، والدكتور محمد النجار ، وسيد قطب . وستقوم بطبع هذه السلسلة ونشرها دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابى الحلبى وشركاه . .
وعلى الله التوفيق « الكاتب »

الفكر الاقتصادي الإسلامي

للأستاذ الدكتور محمد صالح

أستاذ الاقتصاد بكلية الحقوق وعميدها السابق بجامعة فؤاد

(٢)

استعرضت فى المقال السابق بعض مصادر الفكر الاقتصادى الإسلامى . وسأتناول فى مقال اليوم موقف هذا الفكر الاقتصادى الإسلامى من المال فأقول : إن الناس تبذل الجهود لتحصيل ما هو ضرورى أو مرغوب فيه لقضاء حاجاتهم الإنسانية ، والمال هو ما كانت له هذه الخصيصة ، وقد يُظن أن المال هو النقود ، واعتباره بهذا المعنى من المعانى الثانوية ، والحقيقة أن المال كان موجوداً قبل أن توجد النقود ، وقبل نشوء المبادلة أو المقايضة بين الناس . ويشترط فيما يعد مالا أن يكون نافعا مباشرة أو بالواسطة لقضاء حاجة الإنسانية ، وأن يكون قابلا للتملك فيخرج مالا يمكن تملكه كماء الأنهار ، والكلأ ما دام أنه لم يختص به آدمى ، وأن يكون قابلا للتمليك بعقد من عقود المعاوضات كالبيع والمقايضة ، أو بعقد من عقود التبرعات كالهبة والوصية ، أو يمكن رهنه وتأجيره وبالجملة أن يكون قابلا لتعلق الحقوق به .

وقد مدح القرآن الكريم المال والغنى ، واعتبره من نعم الله ، وامتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالغنى بعد الفقر فقال : « ووجدك عائلا فأغنى » وامتن على قوم الرسول بتوفيقهم فى جمع المال من طريق تجارتهم برحلة الشتاء والصيف ، وسمى الله المال الكثير خيرا وأنه من صفات الإنسان فقال تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد » وقال تعالى فيمن يحضره الموت : « إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين » وقال جلت قدرته فى الزينة والطيبات من الرزق : « قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

وقد راعى القرآن الكريم فى مدح المال ، وتوجيه الناس بشأنه ما تطيقه الطبيعة البشرية فلم يقل : « دع ما تملك واتبعنى » ولم يقل « إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » بل قال القرآن الكريم : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وسن القرآن قانونا للانفاق وحفظ المال فنهى عن التبذير ، واعتبر المبذرين إخوان الشياطين ، وقضى بالحَجْر على من يتصرف فى ماله بخلاف مقتضى العقل ، وحض على القصد والاعتدال فى الإنفاق ، ونهى عن البذخ .

وإذا كان الفكر الإسلامى زين للناس تحصيل المال ؛ إلا أنه اشترط تحصيله من وجوه الكسب الطبيعية كالفلاحة والصناعة والتجارة ، والفلاحة أقدم الصنائع لأنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا القوت . أما الصناعة فتنقسم إلى ما هو ضروى فى العمران كالبناء والتجارة والحياكة ، وإلى مايختص بالأفكار التى هى خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة والوراقة : وهى معاناة الكتب بالنسخ والتجليد ، والغناء والشعر ، وتعليم العلم ، والجندية ، والطب والتوليد . واعتبر الفكر الإسلامى أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغى إلا الآخرة حتى لا يكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوى شيئا . والطبيب الذى يبتغى بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا ، ومثله مثل الزارع الذى يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ثم هى لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع باقى الزرع .

أما التجارة فهى محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء ، وذلك القدر الباقى يسمى ربحا ، وهو بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيرا عظم الربح لأن القليل فى الكثير كثير .

ويفرق ابن خلدون بين الاتجار فى الأقوات ، والاتجار بأشياء الترف ، ويحرم فى تجارة الأقوات تخزينها ، وبيعها فى أوقات ندرتها بالغلاء ، وإن هذا التصرف مشئوم يعود على التاجر بالتلف والخسران ؛ لأن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون اضطراراً إلى ما يبذلون فيها من المال فتبقى النفوس متعلقة بما بذلت من مال ، وفى تعلق النفوس بما لها سر كبير فى وباله على من يأخذه . أما الاتجار بأشياء الترف فلا اضطرار للناس إليها ، وإنما يبعثهم على اقتنائها التفنن فى الشهوات ، ويبذلون أموالهم باختيارهم ، ولا تتعلق نفوسهم بما أعطوه . لذلك لا يفسد ربح التاجر من هذا السبيل وقد لحظت الحكومات التفرقة بين الأشياء الضرورية والكمالية ؛ فهى تشجع استيراد الأشياء الضرورية ، وتفرض الضرائب الفادحة على الأشياء الكمالية التى لا يبعث الناس على استهلاكها إلا حب الترف .

ويشترط فى تحصيل المال بأى وجه من الوجوه السابقة الذكر اتباع الطرق

المشروعة . والأحاديث النبوية كثيرة فى حض الناس على تحصيل المال الحلال منها : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » ، « من أكل حراما لم يُقبل منه صرف ولا عدل » ، « ومن لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » والمال الحلال هو ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة مع مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية . من أجل هذا اشترط بعض الفقهاء أن يكون التاجر ملماً بقواعد الشريعة . وقد روى عن الإمام الليث أنه قال : « لا يحل للرجل أن يشتغل بالبيع والشراء مالم يحفظ كتاب البيوع » .

وقال الإمام محمد : « وعلى كل تاجر يحتاج لدينه أن يستصحب فقيها ديِّنا يشاوره فى معاملاته » ، ومن ورث مالا ولم يدر من أين اكتسبه مورثه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثمة علامة فهو حلال ، وإن علم أن فيه حراما أخرج مقدار الحرام بالتحرى : إما إلى مالكه إن عرف أو إلى وارثه ، فإذا كان المالك غير معين ووقع اليأس فى الوقوف عليه ، أو تعذر الرد لكثرة الملاك وجب التصدق به ليصرف فى المرافق العامة ، وإذا كان الوارث فقيراً فله أن يتصدق به عن نفسه وعياله بقدر الحاجة .

ولا يكفى أن يجمع المال على هذا الوجه السليم ؛ بل إن المالك تقع عليه التزامات مالية كالزكاة والكفارات المالية والصدقات ، وإنفاق المال فى سبيل المصلحة العامة ، والذود عن البيضة والجهاد ، قال تعالى : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » وقال . « الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » . بل إن النبى صلى الله عليه وسلم نزع الإيمان ممن لا يطعم جاره الجائع فقال . وليس بمؤمن من يبيت شبعان وجاره جائع » . بل إن هذا يتناقض مع التضامن الإنسانى والمروءة وليس من المروءة أن تكون آنيتك ذهب وفضة ، ولكن المروءة ألا يكون جارك طاويا .

على هذا الوجه نظم الفكر الإسلامى كيفية تحصيل المال ، وشروط تملكه ؛ فهى ملكية طاهرة نقية لايشوبها غش ولا تدليس ، ولا إكراه ، ولا غصب ، وهذه الملكية فقط هى التى يبررها الإسلام ، وهى التى تستحق الحماية .

فالتكاليف التى فرضت على المالك ، وما يجب أن يرعاه من حسن إدارة أمواله تجعل من الملكية : وظيفة اجتماعية إن لم يضطلع بها المالك على هذا الوجه زالت ملكيته

وإلى هذا أشار الله فى كتابه الكريم . « ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » أى وإن تتولوا عن الإنفاق فى سبيل المصالح العامة . وفى سبيل الله . زالت ملكيتكم . واستبدل الله بكم قوما آخرين خيراً منكم .

وقد قدر الإسلام أن ملكية المال متصلة بالشخصية الإنسانية . وأنها ركن الحرية الفردية والدينية . والواقع أننا إذا أردنا أن نهبط بالحرية من مجالاتها النظرية إلى مجال الحقيقة الوضعية لتجسمت فى صورة « الملكية » . وتسمت باسم « الملكية » . فهذا الأعرابى الذى قال لعمر : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » يعتمد فى قوله هذا على حريته الشخصية التى تكفلها له ملكية ماشيته . وهؤلاء العلماء الذين أبت نفوسهم أن يقروا المظالم بل امتنعوا عن غشيان ظلمة السلاطين لم يسلكوا هذا السلوك إلا لاستغنائهم عن أموال الدولة ، واعتمادهم على مالهم . وإليهم يقول الغزالى « لا تكن قطبا تدور عليك رحى ظلمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلما يصعدون منه إلى ضلالتهم : يدخلون بك الشك إلى العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ماعمروا لك فى جنب ماخربوا عليك » . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم . « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان ظالم » . هذا الجهاد فى الحق والاستقلال فى الرأى لايتأتيان إلا إذا كان للانسان حرية توجه نشاطه الاقتصادى . وتملك ثمرة هذا النشاط .

والواقع أن العالم الآن يواجه عقيدتين . العقيدة الأولى : أن الإنسان وهو أشرف المخلوقات . وقد حباه الله بالحرية هو ثمرة بيئتين . أولهما مادية ، والثانية روحانية . والعقيدة الثانية : أن الإنسان أداة ميكانيكية تحدد له الدولة وظيفته فى الحياة المادية التى يحياها . وعلى رجال الدين أن يعلنوا بالقول والعمل معنى الدين ، وإعلاء شأن الله ، وأن يثبتوا أن العدل الإلهى ، ومحبة الله هما مصدران لقوة جديدة للفقراء والمساكين . وعلى أبناء الإسلام أن ينفذوا تعاليم دينهم التى خلدت له المجد ، وبهذا فقط يقضى على المادية ، ونتجنب الشرور الناتجة من النظريات الرأسمالية ؛ والنظريات الاشتراكية حتى يتحقق العدل الذى يأمر الله به « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » .

استغلال الأرض في الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة في الباكستان

(١) تمهيد :

الأرض معتبرة عند الاقتصاديين والناس كلهم هبة من هبات الطبيعة أو نعمة من الله على الناس أودعها خاصية الإنبات متى توفرت ظروف قليلة هينة . ولا نحسب هذه القضية مثار جدل يحتاج إلى برهان وتدليل من طريق المنقول أو المعقول . إلا أن طريقة استغلالها وتملك ما يخرج منها كان ومازال معرض أخذ ورد بين فقهاء الشرائع السماوية المختلفة وعلماء الاقتصاد والاجتماع. ذلك أن الأرض وحدها إذا تركت وشأنها أجدبت وأمحلت إلا في النادر القليل حين تسخو الطبيعة وتجود السماء وتغدق الشمس الدفء والحرارة وتخلو الأرض نفسها من الصخور الممتدة الصماء . نرى ذلك في بعض المناطق الاستوائية ومناطق الرعي (Steppes) . وهذا الوضع لا يعتبر استغلالا للأرض من قبل الإنسان نظراً لانعدام عنصر العمل منفرداً أو مجتمعاً على عنصر آخر من عناصر الإنتاج الطبيعية ، أو ما يسمى اصطلاحاً برأس المال . من أجل هذا كان ذلك الإنبات الطبيعي مباحاً للجميع لا لوفرته ولكن لطبيعته ؛ إذ أن عامل الندرة وحدها في هذه الحال لا يخلق القيمة ولا يضيفها على ناتج الأرض أو على نعمة الطبيعة وهبة الخالق . فلاجدال إذن في أن مناطق الرعي مباحة مشاعة، وغابات خط الاستواء ملك للجميع وهلم جرا . ولئن قيل إنه في بعض الأحايين يدفع المستغل لمثل هذه الهبات الطبيعية أجراً للدولة إن شاء أن يستغلها، قلنا إن الدولة تمثل الجماعة وتثبت عدم انفراد شخص بأحقية التملك والاستثمار .

ما الحكمة إذن في أن الأرض الزراعية لها حكم خاص إذا خرجت في وصفها عما أوردناه في حكم الأرض التي تباح للجميع ؟ قبل أن نستعرض مختلف الردود على هذا السؤال يحسن أن نذكر مجملين التطور الذي مر به الإنسان في استغلاله للأرض حتى تكون القاعدة العامة لمناقشة الموضوع متفقاً عليها . فلاشك في أن الإنسان في أدواره الأولى حين اكتشف الزراعة لم يكن يفكر كثيراً في معنى (ملكية)

الأرض أو تأجيرها نظراً لوفرة المساحة القابلة للزراعة بالنسبة لمن يريد استغلالها .
ثم أتى طور استقر فيه الناس وأوجب الاستقرار وجود علائق بين الفرد والمكان الذى استوطنه . وأهون مثال لبناء المسكن على حق ابتنى الفرد لنفسه مسكنا صعب عليه هجرانه ، ولزم — إن كان من أهل الزراعة — أن يتقيد بعض الشىء بمساحة معينة قريبة من مسكنه ينتقيها من بين مختلف المساحات . وطبعى أن انتشار العمران ليس إلا مرادفا لمعنى الاستقرار والاستيطان . ونظراً لأن القوة الإنباتية للأرض محدودة ، ولأن المساحة المحيطة بالمكان المعمور محدودة وجد التنافس على ملكية الأرض ، وبدا لكل فرد أن يستأثر بأوفر المساحات إنتاجا . هذا الاستئثار هو مبدأ النزاع . وإن لم يكن سببه — وهو مصدر الخلاف بين العلماء فى مشروعية تملك الأرض وأحقية العمل فيها لاستنباتها .

هذه الصورة المجملة فصلها كثير من علماء الاجتماع والاقتصاد فى كتبهم ، ولا نكاد نجد خلافا بينهم فى سياق التطور البشرى المنظور إليه من ناحية استغلال الأرض الزراعية . أما الخلاف كل الخلاف فهو ما سند الملكية فى الأرض إن جاز أن تملك الأرض إطلاقا ؟ هنا نجد بعض الغموض والاضطراب فى التأريخ والتعليل سويا ، فهل ياترى امتلكت الأرض الزراعية أول ما امتلكت بحق السبق فى وضع اليد ؟ أم هل كانت الملكية نتيجة غصب لمن غصب ؟ أم أن الأرض فى وقت من الأوقات لم تكن تصلح لإنتاج مربح مالم يبذل فيها رأس مال غارق . فمن استطاع بذل رأس المال هذا استحق أن يتملك الأرض بحق مابذل فيها وصار بالضرورة جزءاً لا ينفصل عنها ؟ أم هل الملكية الزراعية فى أصلها نتيجة لهذه العناصر مجتمعة أو لبعض منها آنا وللبعض الآخر أحيانا ؟ ليس هناك رد صريح قاطع على هذا السؤال . ولو استطعنا أن نقطع برأى فيه لسهل البت فى مصير الملكية الزراعية . ولكن الواقع أن التاريخ البشرى لا يرسم صورة واضحة للملكية . وكل ما يقال فى هذا الصدد ليس إلا تكهنا واستنباطا إن استند على بعض الوقائع فانطبق على بعض الحالات فإنه قطعا لا يثبت أمام وقائع أخرى ، ولا يتفق مع كثير من الحالات . ونحسب أن هذه القضية أيضا مسلم بها ولا تحتاج إلى برهان أو تدليل تاريخى .

على أن مسألة الملكية الزراعية ظلت هادئة عصوراً طويلة ولئن أثار بعض أطرافها فلاسفة اليونان فى كتبهم النظرية فإنها لم تكن مشكلة عملية — فيما نعلم — فى ذلك العهد ، ولم تكن قائمة أصلا فى عهد الرومان ولا فيما وليها من العصور الوسطى . وأول مثار للقضية كان فى العصر الإسلامى الأول لما تميز به من حرية الرأى وتطبيق الرأى على واقع الحياة . وسنعرض لهذا تفصيلا فيما بعد إن شاء الله . حتى إذا سقطت

الامبراطورية الرومانية وكان عهد الإقطاع بقيت مشكلة الأرض نائمة وإن دخل فيها عنصر القوامة الربانية ، ثم حدثت من بعد الثورات الفكرية العنيفة وولدت الاشتراكية المتطرفة نتيجة للتعصب المتطرف ، ثم أخذت هذه الاشتراكية تتشكل وتتحور وتلبس أثواباً متباينة ، ليس يعنينا منها فى هذا البحث إلا الاشتراكية الزراعية ، وهى فكرة مضمونها أن الاشتراكية لا تصلح إلا فى ملكية الأرض وسند القائلين بها واه ضعيف إذ أنهم عللوا نظريتهم بألا إنتاج إلا ما تخرجه الأرض وأن ماعدا هذا لا يعتبر إنتاجا ، كما يقولون إن الأرض هبة من الله وليس للانسان يد فيما تنبته ، فليس الفرد والحالة هذه أن يستأثر بغلة الأرض إذ فى هذا تحكم فيما لا يملك الفرد ولم ينتج . وليس شك فى أن هذا التعليل ساقط من ناحيته الاقتصاديه ، فليس الإنتاج قاصراً على الاستغلال الزراعى وما تنبت الأرض ، كما أن الأرض وحدها دون عمل لا يمكن أن تكون منتجة بالمعنى الاقتصادى .

تطورت بعد ذلك المذاهب الاقتصادية وأخذت جميعها تنحو منحى الاشتراكية التى تهيمن فيها الدولة على أكثر المرافق الإنتاجية عموما ، وعلى هبات الطبيعة بوجه خاص . ونظرا للتطور الصناعى فى العصر الحديث انصرفت الهمم إلى المشاكل الصناعية أكثر من انصرافها إلى المسائل الزراعية ، وغلَّب هذا الوضع سيادة المثل الأعلى المادى وتركز النشاط الاقتصادى فى الإنتاج الصناعى وسيطرة الدول الصناعية الغربية على باقى العالم ، واجتهاد هذه الدول القوية المستعمرة فى أن تبقى الدول الصغيرة الشرقية بعيدة عن المجال الصناعى لتظل مستعمرة خاضعة لها إن لم يكن سياسياً فاقتصادياً على الأقل . وهكذا نجد أن مشكلة التملك الزراعى ليست بذات بال فى العالم الغربى وهو الأكثر ثقافة ومدنية . ولا نكاد نجد فى التاريخ الحديث فيما بعد الحرب العالمية الأولى نزاعاً يستحق الذكر حول هذا الموضوع اللهم إلا ما حدث فى روسيا السوفيتية وذلك لظروفها الخاصة بها . ويتلخص هذا النزاع فيما قام بين الدولة الشيوعية وبين طبقة الملاك (Kulas) من مشادة حول ملكية الأرض وزراعتها . ومعلوم أن السوفيت أرادوا أن تعتبر الملكية خالصة للدولة من دون الأفراد . ومذهبهم فى ذلك مشهور يقوم على وجوب إلغاء الطبقات وعلى تقويم الطيبات (Goods) على أساس ما يبذل فى إنتاجها من عمل ، كما ينادى بوجوب إبطال الكسب دون عمل حال ، أو بلفظ آخر عدم الاعتراف بمشروعية الكسب الناتج عن ملكية مصدر من مصادر الإنتاج إلا العمل ، أما امتلاك العقار إطلاقا أو رأس المال فلا يبرر الكسب فى مذهبهم . كذلك من المعلوم أن ظروف السوفيت فى ذلك الوقت ، وعداء العالم لهم دفعهم إلى التخلص من الملكية الزراعية

بثمن يعتبر من أغلى الأثمان إذ اضطروا إلى ذبح حوالى ستة ملايين من مواطنيهم حتى يخلو لهم وجه الأرض وتنقرض طبقة الملاك .

أما فى الشرق عموماً فالملكية الزراعية كما أسلفنا هى عماد الحياة ، ولذلك فليس عجبا أن نراها محور النزاع بين المفكرين والساسة العاملين والاجتماعيين على السواء . ومامن دولة من هذه الدول إلا وفيها خلاف شديد ونزاع محتدم حول تكييف هذه الملكية وتقييدها وتنظيمها وهذا ماحدا بنا إلى كتابة هذا البحث خصوصاوأن الدول الإسلامية لا تكاد تستبين وجه الحق الذى قرره الحق تبارك وتعالى فى شريعته فى هذا الخصوص . أضف إلى هذا أن فقهاء الشريعة المتقدمين قد اختلفوا كل الاختلاف فى تحديد شكل الملكية الزراعية ، وفى طريقة توزيع ناتج الأرض حتى إن بعضهم ليحلل الذى يحرمه البعض الآخر ، وفى هذا ما يدعو إلى تعقد المشكلة وصعوبة حلها على أساس الشريعة الإسلامية .

على أن هذا الاضطراب الفقهى كان أكبر حافز لنا على استقصاء الحقيقة ومعرفة قصد المشرع ليقيننا أن الإسلام دين كامل شامل ، ولاينبغى أن يترك الدين مثل هذه المسألة دون رأى قاطع تتبدد معه ظلمات الشبهات والريب ، ولئن اختلف الفقهاء فى تفسير بعض الوقائع التاريخية التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى تأويل بعض الأحاديث الشريفة ، فليس هذا لقصور فى التشريع ، ولكنه فيما نرى أمر طبيعى اقتضته ظروف المفسرين وملابسات البيئات التى عاشوا فيها ، فإن قبلنا اجتهاد السابقين فى التفسير والتأويل كان قمن بنا أن نجتهد نحن لنفسر ونؤول بما يتفق وظروفنا وبيئاتنا دون إخلال بالأصول أو تجن على روح التشريع أو خروج على قواعده الأساسية . بهذه الروح نكتب هذا البحث تباعا ، والله ولى التوفيق .

حاجة الإنسانية للإسلام

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

هذا الإنسان ، وهو ذرّة من ذرّات العالم ، يعجز عن إدراك الغاية من وجوده ، وما فيه الخير له ، لو وكل إلى نفسه . لهذا ، لم يتركه الله سُدى ولَقىً ضائعا ، بل زوده بالعقل يهديه سبل الخير ويقفه على النهج الواضح . وبهذه الأداة الربانية حاول أن يعرف الكون ومركزه منه ، والغاية التي يجب أن يستشرف لها ، ومن ثم ، كان تراث الإنسانية ، قبل عهد النبوات . من النظم والآراء والأفكار في الدين والاجتماع ونواحي المعرفة الأخرى .

إلا أن هذا العقل قد يضل ، ويضل كثيراً ، إن حاول الوصول لإدراك ما ليس في طاقته ، وبخاصة العالم الأعلى وما يتصل به . ومن أجل ذلك ، كان ما نعرف من الفلسفات الإلهيـــة للأمم التي حرمت نور الوحي الإلهي ، في بلاد الشرق واليونان وغيرها . هذه الآراء التي ليست إلا سخرية بالعقل السليم ؛ إذ تجعل من البشر ، بل من الحيوان والجماد آلهة ، وتجعل الآلهة تتحاسد وتتحارب في سبيل حطام هذا العالم الفاني !

لكن الله عادل حكيم ، يعرف أن الإنسان لا شيء إن تركه إلى نفسه وعقله ، وأن من العدل — ليكون الإنسان مسئولا عما يفعل ، وليحقق الغرض من وجوده — أن يبين له الرشد من الغي ، ويفصل له بين الحق والباطل ، وكان هذا على ألسنة من اصطفاهم من خلقه ليكونوا حاملي رسالاته ، هذه الرسالات التي رأيناها متدرجة لتتفق كل منها وعقلية الجيل أو الأمة التي جاءت لها .

لهذا رأينا الدين يجيء في أثر الدين ، والرسول يتبع الرسول ، وكل دين له ناسه المحدودون وزمنه الموقوت ، حتى بعث محمد عليه الصلاة والسلام بدين الناس جميعا والإنسانية عامة ، وذلك حين قضت الضرورة المطلقة بإرساله ، وكان لا معدى عن بعثته ليخرج العالم كله مما كان يتخبط فيه من ظلم وضلال وباطل ، ولولا هذه الضرورة المطلقة ، ما اتصلت السماء بالأرض برسالة جديدة ؛ هذا الاتصال الذي هو خرق

لقوانين الطبيعة ؛ فلا يكون إلا عند حاجة البشرية الملحة المتلهفة لدين جديد .

نعم ! كان العالم كله فى حاجة ماسة لدين جديد بعد أن خفت صوت الرسل السابقين ، وضاعت معالم الرسالات الإلهية الحقة التى أرسلها الله لعباده ، لا فرق فى ذلك بين بلاد العرب موطن بيته الحرام ، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية بعد مهدها الأول بالشام ومصر وفارس ، حيث كانت الديانات المانوية والزرادشتية والمزدكية ، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة .

١ — ففى بلاد العرب ، كانوا يعبدون ما ينحتون ويصنعون من تماثيل وأصنام وأوثان ، ويتخذونها أربابا من دون الله ؛ حتى كان الرجل منهم ، كما يروى ابن هشام فى سيرته إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فجعل أحسنها فى نظره له ربا ، وجعل الثلاثة الباقية أثافى لقدرة . وبلغ من تعظيمهم للأصنام أن اتخذ أهل كل دار صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالتوحيد قالت قريش : « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عُجاب [1] ! »

٢ — وفى فارس كانت الديانات الثنوية — فضلا عن المجوسية — التى يجمع فرقها المختلفة القول بإلهين : النور والظلمة ، أحدها للخير والآخر للشر ، متعامين عن أنه ليس هناك إلا إله واحد هو الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور . وكان من هذه الفرق الضالة ، المزدكية التى كانت تدعو إلى الإباحية المطلقة ؛ إذ ذهب مؤسسها « مزدك » فى جرأته إلى أن « أحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ [2] » .

ومع هذا الضلال فى الدين والعقيدة ، بلغ الظلم الاجتماعى فى هذه البلاد حداً لا يطاق : لقد كان الأكاسرة يزعمون أن دما إلهيا يجرى فى عروقهم ؛ فكانت الرعية تنظر إليهم كأنهم آلهة ، ولهذا كانت تكفّر لهم وتتحمل فى هذا السبيل ما لا تطيق . وبجانب هذا كان المجتمع الفارسى يقوم على نظام الطبقات ، وكانت الطبقات تقوم على اعتبار الأنساب والحرف ، وكان على كل أحد أن يقنع بمركزه الاجتماعى ولا يتشوف لما فوقه ، ولذلك كانت الهوة بين الطبقات لا قرار لها ، وكان بعضهم يتخذ من بعضهم أربابا .

(١) سيرة ابن هشام ، طبعة مصطفى محمد ، ص ١ : ٨٦ — ٨٧

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ، نشر الشيخ أحمد فهمى محمد ، ص ٢ : ٨٥

لهذا ، لما جاء المغيرة بن شعبة للقاء القائد رستم ، وحاول الجلوس معه على سريره ، أنزلوه بالقوة ، فقال كما يرويه ابن جرير الطبرى فى تاريخه : « كانت تبلغنا عنكم ، ولا أرى قوما أسفه منكم ! إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم، ولكنكم دعوتمونى . الآن علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن مُلكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » . ومن أجل ذلك ، نرى توماس أرنولد المؤرخ الإنجليزى يؤكد (١) أن سوء حالة فارس الدينية والاجتماعية كان « علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه . وما أن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بالعرب » .

هكذا يرى هذا المؤرخ أن سوء حالة فارس الدينية والاجتماعية كانت تتطلب الإنقاذ السريع مما هم فيه ، وذلك بدين جديد معقول ونظام اجتماعى عادل . لكن ما يزعمه من أن هذا فقط كان علة انتصار العرب ، هو زعم باطل جارى فيه غيره من المستشرقين . إن الواقع الذى أشار إليه المؤلف نفسه فى مواضع أخرى من كتابه ، هو أن الإسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة ؛ ولهذا تتقبله العقول والضمائر متى تفتّحت له ، وأن المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء إحدى الحسنيين . وشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وما عنده من خير ، وبين من يقاتل دفاعا عن عقيدة فاسدة ودولة عاتية ونظام اجتماعى ظالم مقيت !

٣ — وفى بلاد الروم والشرق الأدنى : الشام ومصر ، كانت المسيحية ؛ هذه الديانة السمحة فى أصلها التى تدعو أول أمرها إلى عبادة الله وحده ، وما المسيح إلا كلمته ورسوله ، قد استحالت بما نالها من تغيير فى أسسها إلى دين معقد ليس إلى فهمه من سبيل .

لقد انقسمت الكنيسة المسيحية على نفسها إلى أرثوذكسية فى الامبراطورية الشرقية ، وكاثوليكية فى الامبراطورية الغربية بروما ، وكان لهذا الانقسام من الخطر وبُعد الأثر أن صار كل مذهب من هذين المذهبين ديانة قائمة بنفسها ، وأن صار كل من هاتين الديانتين عدواً شديداً للديانة الأخرى ؛ إذ كان انقساماً فى المبادىء والأصول

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين ص ١٦٩ .

لا اختلافاً فقط فى الفروع . وكان هذا الانقسام يرجع ، فى بعض نواحيه ، إلى الاختلاف فى المسيح وشخصه : أهو ذو طبيعة إلهية واحدة لا غير ، أم فيه مع هذا عنصر إنسانى ؟

وبعد أن استحكمت الفُرقة بين الكنيستين ، اعتبرت كلٌّ كنيسة كلَّ من لم يذهب مذهبها خارجاً عن الدين يجب اضطهاده وعقابه ، وكان هذا حق فى عهد جوستنيان المشرع الرومانى الأشهر ، وفى هذا يقول مؤرخ إنجليزى معروف :

« وبالرغم من أن الهراطقة « يريد الزنادقة الخارجين على الدين » كانوا يؤدون ما يقع على المواطنين من أعباء ، فقد حُـرِّم عليهم التمتع بامتيازاتهم ، وحرَّمت عليهم قوانينه « يريد قوانين جوستنيان » الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة . فأصبح المنشق منبوذاً من المجتمع [١] » .

وكان من هذا كما يقول نفس المؤلف فى موضع آخر [٢] ، أن « شعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مُثُلها العليا المنشودة ، فأخذوا يجاهدون فى سبيل الإفلات من عالم لا يحتمل فى نظرهم ، وامتلأت جنبات صحارى مصر بطالبى العزلة الذين يبغون الوصول إلى الله .

ومن الطبيعى أن يستتبع هذا الفساد فى العقيدة وتلك الفرقة فى الدين والاضطهاد للخارجين على المذهب الرسمى ، الانحلال فى الأخلاق ، والفساد فى الإدارة ، والظلم فى المجتمع ، هذا الظلم الذى كان الغنى يستطيع تجنبه بفضل جاهه وماله .

هذه الوجوه من الفساد التى ذكرنا بعضها وأشرنا إلى بعضها الآخر ، كان لها بلا ريب أثرها الكبير فى تقبُّل الإسلام فى كثير من نواحى الامبراطورية الرومانية بقبول حسن من المسيحيين أنفسهم ؛ إذ وجدوا فيه مُتنفساً لهم ، مخلصاً مما كانوا فيه من عنت وكرب . وفى هذا ، ننقل كلمة عن كتاب توماس أرنولد السابق ذكره [٣] :

« كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام « وفى سائر بلاد المسيحية طبعاً » قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة . . . وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون

---

(١) الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان بينز وترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخر ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٧ ٦٨ .

زمرة من الشهداء والمديسين والملائكة . كما كانت الطبقات العليا مختنقة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم ، فأزال الإسلام — بعون الله — هذه المجموعة من الفساد والخرافات . لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى ، ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه . وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة أخرى ويوماً للحساب، وأعدّ للأشرار عقاباً أليماً ، وفرض الصلاة والزكاة وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة ، والجدل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة . وسفسطة المتنازعين فى الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهبنة ومنح العبد رجاء والإنسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية » .

« ولنضف إلى ذلك أيضاً ، أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسى البيزنطى الذى كان يمثل الامبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية فى الأعالى . وفى عهد جستنيان ، نرى هذا النظام يزداد تسعفاً ، حتى يستحيل استبداداً يجثم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامة على السواء » .

والآن ، بعد أن شهد شاهد ، بل أكثر من أهلها ، نعتقد أنه أصبح واضحاً تماماً أن الحالة الدينية ، فضلا عن الحالة الاجتماعية الظالمة ، التى كانت عليها البلاد المسيحية قبل الإسلام وإلى أن بزغت شمسه ، كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً ؛ إنقاذاً يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل ، فكان هذا الإنقاذ هو الإسلام .

***

وبعد : هذا هو الإسلام الذى تطلعت إليه الإنسانية وظفرت به ، الإسلام آخر الأديان السماوية ، فليس لنا أن ننتظر ديناً آخر تأتى به السماء ، كما كان رسول الله صلى الله عليه خاتم الرسل ، فليس لنا أن نرجو رسولا آخر من لدن الله . ما الذى نرجوه إذاً والأمر على ما ذكرنا لإصلاح هذا العالم الذى نعيش فيه بصفة عامة بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والعالم الإسلامى بصفة خاصة ؟ إنه لاشىء غير هذا الإسلام نؤمن به حقا ، ونفهمه حقا ، ويكون لنا منه دعاة وزعماء مخلصون ، دعاة وزعماء يجعلون حياتهم وقفا على الدعوة له ، ويرون سعادتهم فى القيام به ، ويكونون فى سرهم وعلانيتهم مثلا عليا تدعو وحدها للاسلام .

لقد سئمنا والله ، سماع ما يذيعه أقوام « بالراديو » ، وما يكتبه البعض فى الصحف ، دعوة للاسلام ومثله وللقتال فى سبيل الوطن ، وحلاوة الاستشهاد من أجله سئمنا الكثير من هذا ، لأنه كلام لا يصدقه فعل ، ودعوة باللسان دون القلب وصرنا جميعاً نتشوف إلى زعيم دينى وطنى يجمع شباب الأمة تحت راية الإسلام ، هذا الشباب الذى تشمله هذه الأيام حالة نفسية تجعله يستجيب سريعاً للزعيم الذى يؤمن به ، فمن هو الزعيم المنتظر ، وكيف لنا أن نظفر به ؟ قد يكون ذلك موضوع كلمة أخرى إن شاء الله تعالى .



هكذا حكموا ...

لما حبس معاوية عن الناس أعطياتهم قام إليه أبو مسلم الخولانى ، وهو يخطب فقال : يا معاوية ؛ إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك وأمك فلم حبست عن الناس العطاء ؟ فغضب معاوية ثم نزل فدخل وأومأ إلى الناس أن تثبتوا ولا تتفرقوا . ثم خرج فعاد إلى المنبر وقال : أيها الناس ، إن أبا مسلم قد قال ما قال فوجدت لذلك ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا غضب أحدكم فليغتسل » . وصدق أبو مسلم ؛ فاغدوا على أعطياتكم فخذوها على بركة الله .

من دستور تكافلنا الاجتماعي

« والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »

أموالهم :

فى هذه الآية الكريمة يذكر الله تبارك وتعالى المال مضافا إلى أصحابه فيقول : « والذين فى أموالهم . . . »

وقد يسبق إلى وهم بعض الناس أن هذه الإضافة تفيد ملكية الأموال لمن أضيفت إليهم ، وهو خطأ لابد من التنبيه إلى صـــوابه : فالمال مال الله ، هو الذى خلقه واستخلف فيه عباده .

هكذا قرر الدين ، وقرر العقل ، وقرر علماء الاقتصاد الذين لايعرفون غير الأرقام ولغة الواقع فقالوا : إن الناس لايخلقون الثروات وإنما تخلقها الطبيعة . . فإضافة الأموال إلى أصحابها تعبير عن الحيازة فقط ، لأن ملكية الإنسان لماله إنما هى حيازة طارئة على ملكية الله سبحانه ، فإذا سميت هذه الحيازة ملكية فهى تسمية مجازية مبنية على المساهلة ، لاتنسخ الملكية الأزلية الأولى المقررة لله رب العالمين

حق معلوم :

وفى الآية ذكر لكلمة « حق » . . . والنظر يتناول هذه الكلمة من نواح عدة : الأولى : من حيث أن هذا الحق مقرر فى أموال الأغنياء « فى أموالهم حق معلوم . . . » والحق فى المال يحمل معنى الإلزام — لامعنى التطوع — كما يجب أن يفهم عُبّادُ أنفسهم . ونبادر هنا فنقول : إن القرآن الكريم وسنة الرسول عليه السلام سمّت هذا الحق « صدقة » وسنعرض فيما بعد — إن شاء الله — لبيان حقيقة هذه الكلمة ، فقد ظلمها الاستعمال حتى فقدت ما وضعت له فى اللغة وفى الشرع ، وصارت علماً على فتات حقير يلقيه بعض السادة لمن يتضعضع لهم ويذل نفسه لكبريائهم . . فسيد متفضل فى جانب ، وذليل مهين فى جانب آخر

لا . . إن الإسلام لم يرد قط بالصدقة هذا المعنى ؛ وإنما أراد معنى آخر ينشرح له صدرك — إن شاء الله — حين نعرض لبيانه . وقد عجلنا هذه الإشارة هنا لنمحو ماقد

يكون فى ذهن القارىء أو فى نفسه من الموجدة على هذه الكلمة ، وليعلم مقدما أنها لاتعنى إلا « الحق » . والحق غير التفضل وغير التطوع ، ولا معنى للحق إلاأن يتقاضاه صاحبه بالإلزام ، ويستخلصه بكل وسيلة مشروعة كما يستخلص أى حق آخر .

وإذا كانت الأوضاع الاجتماعية قد طغت بفسادها وجحودها على هذا الحق فضيعت معالمه ، وأزالت معناه من أذهان الناس ، ومحت وجوده فى نصوص القانون ، وبددت ماله من سلطان وقوة فى العرف والعقيدة ؛ فإن عمل المفسدين لم يكن فى يوم من الأيام شرعا يتبع ، أو حجة تسوغ اغتصاب الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل . . فالحق حق ، أنكره الناس أو أذعنوا له .

قدسيـــة الحق وجلالته :

أما الناحية الثانية التى ننظر منها إلى كلمة « حق » فهى ناحية « القدسية » فالحق حين يجرى على لسان نبى يكون له من القدسية والجلالة مالا تجده حين يجرى على لسان إنسان من الناس .

ولقد ابتعد الناس عن سلطان الدين وقدس الأنبياء ، وانساقوا فيما يسمونه « التيار المدنى » فكانت لهم قوانينهم المدنية ، وحقوقهم المدنية . . ولا ندخل بك فى مقارنة بين معنى الحق فى الاصطلاح المدنى ومعناه حين تقرره الأديان ، ولكنا نلفت النظر إلى الفرق الشاسع الذى تحسه الضمائر والأذهان حين ينطق نبى من الأنبياء بمعنى الحق وحين ينطق به بوق من أبواق المدنية فى سوق من الأسواق أو محكمة من المحاكم .

فإذا عرفنا أن الأنبياء لاينطقون عن الهوى ، ولا يقررون إلا ما يوحى إليهم من ربهم ؛ فان معنى الحق يزداد رسوخه فى أعماق النفوس وتعظم جلالته فى طوايا الصدور وشتان بين كلمة ينطق بها بشر مخلوق ، وحق يقرره الذى خلق السموات والأرض بالحق وسمى نفسه الحق ، وجعل الحق ناموس الصلاح والإصلاح يجرى بمشيئته إلى ما فيه الخير العام ، لايتبع هوى إنسان ولا ينحرف عن سننه مرضاة لمخلوق ، فإن صلاح الكون هو مقتضى حكمته سبحانه : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن »

هذا شأن الحق حين يقرره الله عز شأنه ، ويرسل به الرسل ، يستمد جلاله وقدسيته من نسبته إليه سبحانه ، وترتبط حكمة أهدافه بحكمة الله الذى لايعبث ولا يلهو ، ويمضى إلى غايته بقوة الله الذى أراد : «وكان أمر الله قدرا مقدوراً » . وحسبك أنه

هو الوحدة الكبرى التى تدار عليها مقادير السموات والأرض . فلو انحرفت نواميس هذه الوحدة مثقال ذرة عن منهاجها المرسوم استجابة لهوى أحد من الناس لما فسد الناس وحدهم ، ولما فسدت الأرض وحدها ؛ وإنما فسد الكون كله بأرضه وسمواته ومن فيهن من إنس وجن وملائكة ومن لا يعلم كنهه إلا الله . . وحاشا أن يكون ذلك !

فقدسية الحق التى نعنيها لا تستمد معناها من مجرد العاطفة فحسب ، بل تستمده كذلك من تصور المعنى الأصيل الذى يجمع أطراف الكون كله فى قبضة ناموسه الهائل ، ويريك أفراد الكائنات سابحة فى أفلاكه إلى الغاية العليا ، فإذا بدا لأحد من البشر أن يشذ عن فلكه فلن تبكى عليه السموات والأرض ، ولن تجرى وراءه تلك المجموعة الضخمة من الكائنات والنواميس ، ولن يلقى إلا ما يلقاه أى كوكب شذَّ عن مداره من الضلال والاصطدام والتحطم : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » . « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .

فالأمر على هذا أمر خطير ، وسر رهيب جليل ، وقول فصل ليس بالهزل ، وهو ما أردنا أن نلفت إليه النظر . فإذا كانت المحاكم تنصب والموازين تقام لأى التزام مدنى تقرره وثيقة من الوثائق ، فانظر ماذا يجب علينا تلقاء حق جاءنا من عند الله وامتدت عروقه حتى اتصلت بسائر نواميس السموات والأرض ؟

. . إنه إذن أمر فوق التطوع والتفضل . . . إنه الأمر اللازم والفريضة المحتومة ما دامت الفريضة لا تعنى إلا أن ننساق فى تيار المشيئة العليا التى توجه نواميس هذا الكون . . . مشيئة الله وحده سبحانه عز شأنه .

المنطقة الحرام :

أما الناحية الثالثة من نواحى هذا الحق فهى ناحية اتصاله بأموال الأغنياء . فالله سبحانه إذ جعله فريضة محتومة لم يجعله أمراً تعبديا خالياً من الحكمة ، أو بعبارة أخرى لم يلقه على الناس مغرما كالحاً خالياً من المسوغات . . . بل ألقاه عليهم وهو صاحب المال المتفضل به . . ألقاه عليهم وهم أمناؤه المستخلفون على ما فى أيديهم من ثروة . « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . . ألقاه عليهم وهو يعلم وهم يعلمون أنه صانع الثروات ، وأن جهد أحدهم فيها لا يبلغ أن يصنع لنفسه شربة ماء فما دونها : « أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ »

إن حقيقة الإنتاج فى هذه الأرض تتخلص فى أن الله هو الذى « ينتج » ونحن نستهلك : أى أن جهود البشر فى هذه الثروات لا تتعلق أبدا بالإنتاج ، وإنما تتعلق بالاستهلاك أو تهيئة الأشياء للاستهلاك كما يهيأ الخشب والحديد ونحوهما ليصير متاعا يرتفق به الإنسان فيما يريد .

فجهود الناس فى تحصيل الخيرات وسائر ما فى الأرض من ثروات جهود لا تستوجب الملك المحض ، بل تسوغ الحيازة فقط ، وتدع حق الملكية للخالق الأول جل شأنه . . فإذا أباحهم أن يتصرفوا فى هذا المال تصرف المالك الحكيم فيما يملك فهو محض فضله وسعة كرمه . . وإذا ما أوجب عليهم فى هذه الأموال حقاً فهو أمر له كل المسوغات المعقولة ، وليس لأحدهم أن يقابله إلا بالشكر والثناء على ما أنعم ، والرضا بما أمر وشرع وأوجب . ولا يستطيع إنسان أن يتصور — فى ضوء هذا المعنى — مسوغا معقولا يسول لأولئك المطموسين أن يبخلوا على الله بما آتاهم من فضله ، إلا أن يكونوا قد وقعوا تحت سلطان النفس الأمارة بالسوء الشحيحة بالخير : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء » .

وإنا لنملك أنفسنا فى هذا المقام عن الاسترسال فيما أوقعت بنا هذه النفوس الخسيسة ، وشرعت لنا من اللؤم والخسة والبخل شرعة أوغرت الصدور وساقت الضعفاء قوافل مسخرة لخدمة الأنانية ، وعبيداً مرهقين بقسوة إله الترف الذى لا يشبع ولا يقنع . لا نسترسل إلى ذلك بل نبرز ذلك الشذوذ الذى يجنح إليه البخلاء إذ يتفضل الله عليهم فيبيحهم نعمته دون أن يروا له حقاً عليهم فى شىء . . . وهو إذ يطلب لا يطلب إلا جزءاً يسيراً قد يبلغ العشر مما وهب لهم وملكهم إياه ، فكيف لو ألقى إليهم أمراً يستنفد كل ما أعطاهم ، ويستأصل ما وضع فى أيديهم من مال ؟

إنه سبحانه لم يفعل ذلك ، ولم يطلب من هؤلاء إلا أن يدركوا علاقة الثروة بالله أولا ، وعلاقتهم بها ثانيا ليعرفوا على ضوئها مبلغ السماحة الغامرة التى يفيضها الله عليهم . فإذا أدركوا ذلك وسرى نوره فى ظلمات طباعهم الكثيفة كان إيمانهم بالله فى ميدان الثروة والمال مبنيا على أسس فطرية معقولة ، وكان أمره بالفريضة أيسر على نفوسهم من أن يكون مغرما إن لم تر فيه معنى من معانى الغنم .

فمهما قلبنا الأمر على وجوه المنطق السليم ألفينا هذه الفريضة المالية مستندة إلى

أوضح المسوغات المعقولة ، بل ألفيناها مستندة إلى فضل الله ، إذ وهب الكثير واحتفظ فى هذه الهبة بنصيب يسير قرر أداءه لمن يشاء من عباده ، فكأنه قال لعبده : « وهبت لك كذا من المال إلا عشره أو نصف عشره أو ربع عشره ، فعليك أداء هذا النصيب إلى من أسمى لك من عبادى ، وهذا معنى قوله تعالى : « فى أموالهم حق » : أى أن فى هذا المال المباح لصاحبه منطقة حراما أو حصة ليست له حقا له ، بل هى حق لغيره .

* * *

والناحية الرابعة أنه معلوم . . .

وهذه الآية الكريمة التى صدرنا بها هذه الكلمة مكية نزلت بمكة ، والمعروف أن الزكاة فرضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة . أى أن مبدأ الزكاة تقرر فى مكة ثم ترك تفصيله وتبيين أحكامه وتنظيم جبايته ومصارفه إلى الوقت الذى يكون فيه للاسلام دولة قائمة ومجتمع مستقر ، أو فى سبيل الاستقرار .

وإذن فلنا أن نقف عند قوله تعالى : « حق معلوم » لنسأل : ما معنى أنه معلوم مع أن الرسول لم يحدد مقاديره إلا بعد نزول الآية الكريمة بسنوات كثيرة وانتقاله من مكة إلى المدينة ؟

لقد ظل المسلمون يقرءون هذه الآية زمنا طويلا قبل أن تبين لهم أنصبة الزكاة ، والمقادير الواجبة فى كل نصاب ، فماذا كانوا يفهمون من كلمة « معلوم » ؟

الواضح الذى تقبله العقول من غير تعسف أنهم كانوا يفهمون كلمة « معلوم » على أنها صفة للحق نفسه . وليست وصفاً لما يتعلق به من أنصبته ومقاديره وأوقات أدائه ومصارفه ونحوها . . فهو حق معلوم أى متيقن ، لأن من معانى العلم اليقين ، كما أن من معناه المعرفة . واليقين هنا أولى لأن الإسلام يهدف فى تقرير أحكامه الهامة إلى أن تكون كلها فى منزلة اليقين ، فالحق المعلوم هو الحق المتيقن الذى تسلم به النفوس ، كما تسلم بكل أمر واقعى يقينى دون أن تجعله موضعا للتردد أو المراء .

وضرورة النص على هذه « المعلومية » أن الحق تنكره النفوس وتجحده الطباع وتنفر منه لا لأنه باطل ، بل لأنه ثقيل التكاليف . . وكثير من الناس يكون مدينا لآخر بدين يشهد به من الخلق ما لا يحصى ، ولكنه يلتوى فى الإذعان له ، ويسلك كل سبيل للمطل والهرب من الأداء وليس ذلك من صفات المؤمنين ، بل هو من صفات عُبّاد الدينار والدرهم ، وهى عبادة لا تجد مجالها إلا فى الطباع المظلمة ، والنفوس

الكثيفة . فما لم يكن لهذه الطباع إذعان فطرى للحق .. إذعان اختيارى مجاله المسارعة إلى أمر الله فى نشاط ويسر ورغبة ، ومصدره اقتناع الطبع — إذا صح أن يكون للطبع اقتناع — فلن يكون الحق معلوما أو متيقنا لدى أحد من الناس .

إن الإنسان قد يحجم عن الواجب لا لأن العقل ينكره أو يقتنع بخلافه ، بل لأن الطبع لا ينشط له . تلك الحالة التى تجعل للطباع أحيانا سلطانا فوق سلطان العقل ، وأحكاما ترجح أحكامه هى التى سميناها اقتناعا . فإذا اقتنع الطبع بوجوب حق من الحقوق الإلهية فذلك صفوة الإيمان وحقيقة اليقين ، وهو التصديق القلبى الذى نقرؤه فى كتب الدين . ويكون معنى ذلك أن العقل والطبع قد التقيا على حكم من الأحكام وهذا هو الذى تؤيده كلمة « معلوم » التى وصف بها الحق ، وهو الذى جعلنا نفسر « العلم » هنا بأنه اليقين .

فليس المعول عليه أن يستقر هذا العلم فى الذهن ، بل أن يتقرر كذلك فى الطبع فيكون متقبلا لديه معترفا به منه ، وتلك منزلة لا يبلغها المرء إلا إذا حرر طبعه من عبادات الأنانية والأهواء الفاسدة ، وغدا محكوماً بقوانين عبادة الله وحده .

وحين يصبح الحق معلوما هذه « العلومية » لدى المؤمنين ، متيقنا فى طباعهم على هذا النحو فقد استغنى المجتمع عن القوانين الرادعة ، وصار أداء الحقوق موكولا إلى قوى خفية فى النفس أقوى من كل ما وضع البشر من قوانين .

السائل والمحروم :

وهذا الحق المعلوم ذكر القرآن أنه « للسائل والمحروم » أى أن أصحابه الشرعيين هم كل من يصدق عليه أنه سائل أو محروم .

والسائل ليس هو الذى احترف الشحاذة وأخذ يدور فى الشوارع ، أو يمر على المنازل والأندية يضايق الناس بصفاقته وإلحافه فى الطلب فى ذلة وتضعضع .. فمحال أن يقرر الشارع لهؤلاء المحترفين حقوقا فى أموال الناس . . .

وإنما السائل الذى يعنيه الشارع الحكيم هو ذلك العزيز الذى اضطرته ظروفه الاجتماعية أن يحتاج مؤقتاً إلى المال : فهذا الذى انقطع به السبيل عن ماله لبعده عن موطنه وألفى نفسه مضطراً إلى ما يسد حاجته ويبلغ به مأمنه وموطنه هو ممن يشملهم وصف « السائل » ولو كان عليه من جميل الثياب ما عليه ، بل لو كان ممتطيا صهوة جواد أصيل كما قال عليه السلام : « للسائل حق ولو جاء على فرس » . ومن الناس من

تدفعهم الأريحية إلى التوفيق والمصالحة بين الناس . وقد يكلفهم السعى الحميد أن يلتزموا التزامات مالية لا تطيقها إمكانياتهم ، فلا بأس بأحدهم حينئذ أن يسأل المعونة على هذا المقصد النبيل .

ومن هنا نرى الإسلام يخرج بمعنى السائل من هذا الاصطلاح المهين الذى يجعل صاحبه آفة اجتماعية إلى أفق فسيح من الكرامة والتعاون على مكارم الأخلاق . . . . وكل سؤال فى غير ضرورة ملحة أو مكرمة ظاهرة فهو سحت ودناءة .

أما المحروم فهو كما ترى وصف عام ، ولهذا ذهب العلماء فى تفسيره مذاهب شتى ، حتى قال الإمام الشعبى : « أعيانى أن أعلم ما المحروم » . وذهب ابن جرير إلى أن المحروم هو الذى لا مال له بأى سبب كان ، سواء كان لا يقدر على الكسب أو هلك ماله بآفة أو نحوها . . .

وقالت عائشة : « هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه » . والمحارف بفتح الراء : هو من استغلقت أمامه أبواب الرزق ، فإذا استعصى عليه أن يلج أحدها مال عنه إلى آخر ؛ جاء فى المصباح المنير : « المحارف هو الذى حورف كسبه فميل به عنه » . وأنت قد رأيت عائشة رضى الله عنها تصفه بأنه الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه .

وعن ابن عباس ومجاهد : « المحروم هو المحارف الذى لا كسب له ، ولا حرفة يتقوت منها » .

وقال الضحاك : « المحروم هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب . قضى الله تعالى له ذلك » . وقال أبو قلابة فى تفسير معنى المحروم : « جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل فقال رجل من الصحابة : هذا هو المحروم » ؛ وهذا التفسير الذى ذهب إليه الصحابى رضى الله عنه تفسير جيد له فقه من القرآن الكريم ؛ فنى سورة « القلم » ذهب أصحاب الحديقة لجنى ثمارها ليلا فإذا هم يرون الآفة السماوية قد أتت عليها حتى ظنوا أول الأمر أنهم ضلوا الطريق إليها ، فلما تحقق لديهم أن الآفة ذهبت بثمارهم قالوا : « بل نحن محرومون » .. وفى سورة «الواقعة» يذكر الله تعالى فضله على عباده فيما تخرج لهم الأرض من زرع : « لو نشاء جعلناه حطاما فظلتم تفكهون : إنا لمغرمون بل نحن محرومون » : فالمحروم على ذلك هو الذى ذهبت الآفات أو الحادثات وتصرفات الدهر بماله .

ومن هذه الأقوال يتبين أن المحروم :

١ — هو الذى لا يستطيع الكسب لاستغلاق أبواب العمل فى وجهه ، أو لأى سبب آخر من مرض أو ضعف أو نحوه ، ولا مال له .

٢ — هو الذى لا يكاد يستقر على حال من اليسر حتى تفاجئه الأيام بما يغير الحال غير الحال . قضى الله تعالى له ذلك ، كما ذكر الضحاك .

٣ — هو الذى ذهبت الآفات أو نحوها بماله من ثمر أو تجارة أو ماشية أو نحوها .

هذان الصنفان « السائل والمحروم » هما أصحاب « الحق المعلوم » الذى تشير إليه الآية الكريمة .

ونحب أن نذكر فى ختام هذه الكلمة ما سبق أن أشرنا إليه من أن هذه الآية الكريمة مكية نزلت لتقرير « مبدأ الزكاة » على النحو الذى شرحناه ، وتركت تفاصيل هذه الفريضة إلى أن يحين حينها : فلما أذن الله سبحانه استقرار المجتمع الإسلامى بالمدينة بدأ الرسول عليه السلام فى السنة الثانية من الهجرة يفصل بأمر الوحى وإلهام الله كل ما يتعلق بها ، . فذكر أنواع المال التى تجب فيها هذه الفريضة . . . وبين الحد الأدنى الذى لا زكاة فيه . . . وبين مقدار ما يؤخذ . . . وفصّل طريقة الجباية . . وحدد صلة ولى الأمر بما يجمع من أموال هذه الفريضة . . . وأوضح المصارف التى ترصد لها هذه الأموال . . وعرض لغير ذلك مما يتصل بهذا الحق الاجتماعى ؛ فأمن به المجتمع من القلاقل والهزات ، وسلم الأفراد من حكم الهوان والمذلة والضياع ، ونمت مشاعر الناس فى ظلال هذا التكافل الذى طبق فى هذه الأرض لأول مرة فى تاريخ البشر على أساس من المودة والإخاء ، والمساواة والتعاون على البر والتقوى والخير العام . ، ؟

توجيه المعارف في البلاد الإسلامية

لسماحة السيد أبي الحسن الندوي

وكيل ندوة العلماء بالهند

(٢)

إن التربية لا تقل أهمية عن التعليم ، وإذا خلا التعليم من التربية أصبح بلا نتيجة فى أكثر الأحيان ، ونقصنا فى ناحية التربية ليس بأقل من نقصنا فى التعليم ومناهجه . وموضوع التربيه موضوع واسع طويل الذيل وكثير الشعب والنواحى ، وأنا أشير هنا إلى نقط مهمة .

يجب أن يفهم طلبتنا غايتهم ورسالتهم ، وليعرفوا أنهم يتعلمون ليستحقوا سعادة الدنيا والآخرة ، وينقذوا أنفسهم وأهليهم من النار وسخط الخالق والحياة الجاهلية ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأنهم ورثة الأرض إذا صلحوا ، والنـــاس لهم تبع . وأن الأصل فيهم أنهم مسلمون عاملون ، دعاة إلى الله وإلى دار السلام ، وكل شيء فى حياتهم فرع ووسيلة دالة ، وليست غايتهم الوظائف — وإن كانوا يشغلونها بأهلية ويقومون بها بأمانة ونشاط — ولا المهن والحرف وإن كانوا يباشرونها بيقظة وكفاءة ، ولاالراحة والدعة والمجد وإن كانوا يتمتعون به فى حل وفى اعتدال ، وإنما غايتهم حسن العمل ، وتقوى الله ، واتباع رسوله ، والاستعداد للآخرة ، والدعوة إلى الله . يستعملون لذلك جميع مواهبهم ، ويركزون فيه قواهم وجهودهم ، ويعملون لذلك على اختلاف أذواقهم وفنونهم ومهنهم وفرصهم .

ثم ليعرفوا كرامتهم وقيمة علمهم ، ولا يهينوا أنفسهم ، ولا يبيعوها بيع السلع وبيع المناداة والمزاد العلنى ، فيبيعوا أنفسهم لكل من يقومها ولكل من يزيد فى الثمن كائناً من كان ، ويحاربوا مركب النقص فى نفوسهم . وليذكروا قول الشاعر العربى حاتم الطائى :

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى من الناس مكرما

وقول الطغرائى :

غالى بنفسى عرفانى بقيمتها فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

فلا يضعوا أنفسهم إلا أشرف موضع يقدرون عليه من غير تكبر وأنانية ، ولا يستعملوا

مواهبهم إلا فى الوجه الذى يليق بها ؛ وليعتزوا بدينهم ولا يخجلوا من الظهور به والانتساب إليه والقيام بواجباته ، وليعتبروا بالزعيم غاندى الذى — على كون دينه خرافياً — لم يخجل من عبادته فى البرلمان الإنجليزى ولا القصر الملكى ، ولم يخل بها فى وقت من الأوقات المقررة ، ولهم عبرة فى كثير من رجال كبار القصر الذين فاقوا الأوربيين فى ثقافتهم وأدبهم ودراستهم ، وجاهروا بالدين ، وانتقدوا الحضارة الغربية فى شجاعة وصراحة ، وظهروا فى مظاهر الدين كالزعيم محمد على الهندى ، والدكتور محمد إقبال وكثير فى الهند ومصر .

النقطة المهمة الثانية هى التشبع بروح الدعوة والاختلاط بالشعب . وقد ظهر أن أمة أوجماعة ليس فيها روح الدعوة والتقدم والهجوم لا تحافظ على وجودها وعلى مبدأها وعلى عقيدتها . وأن موقف المدافع موقف الضعف المعرض للخطر وكل من لا يكون واعياً يكون هدفا لدعوة أخرى. وقد ثبت بالتجربة أن خير وسيلة للايمان بالمبدأ والثبات عليه ومتانة العقيدة والاستماتة فى سبيلها هى الدعوة إليها ؛ فالداعى دائما قوى الإيمان بمبدأه متحمس فى عقيدته نشيط فى عمله مستهين بغيره . فإذا أردنا أن نخلق فى طلبتنا هذه الصفات وأن يخرجوا من دور الخطر على دينهم ، ونأمن عليهم الاندماج فى غيرهم والوقوف فى المعسكر المخالف فينبغى لنا أن نجعلهم دعاة فإذا أردنا أن نجعلهم متدينين لزمنا أن نجعلهم دعاة إلى الدين . وقد جربنا ذلك فى الهند فنجحنا نجاحا باهراً ، فطلبة كليات الحكومة والكليات المختلفة لما خرجوا إلى القرى والضواحى يدعون إلى الله ، ويلقنون المسلمين مبادىء الإسلام ، ويوقظون فيهم روح الدين رأينا الحماسة الدينية فيهم تزداد اشتعالا كل يوم ، وروحهم تقوى وهم فى تقدم مطرد فى الديانة والصلاح حتى فاقوا فى الحماسة الدينية ونشاطهم وإيمانهم بالدين والجرأة الدينية أبناء المدارس الدينية العربية التى لا يختلط طلبتها بغير المسلمين ولا يقرأون العلوم العصرية . والسر فى ذلك هو الدعوة التى تجعل من الرجل غير الرجل ومن القلب غير القلب .

وقد جربت جماعات الإخوان المسلمين فى مصر وأقطار الشرق الأوسط هذا الأسلوب حتى أصبح شبابها يمتـاز بروحه الدينية المشتعلة وأخلاقه الكريمة العالية وبروعة أثره فى الناس .

وبهذه الدعوة والرحلات فى سبيلها والاختلاط بالشعب على اختلاف طبقاته نتمكن من محاربة داء شديد حل جديداً بدور التعليم ورجالها ، وهو العزلة عن العالم الذى يعيشون فيه والانقطاع عن الأمة التى هم من أفرادها فقد أصبحت المدارس فى حياتنا جزراً صغيرة منفصلة عن الخارج . والنـاس الذين يتخرجون منها يكونون جزراً

صغيرة أخرى ، فكل فرد منهم جزيرة مستقلة يعيش فى عالم الخيال يسبح فى فلكه الخاص وله دائرة من الأصدقاء والإخوان لا يتجاوزها ، ولا يعرف من آلام الأمة وآمالها شيئاً .

فهو فى واد والناس فى واد ، وظلت الفجوة والجفوة تتسعان بينهما على مر الأيام حتى أصبح المتعلمون أمة مستقلة لها لغتها وثقافتها ونفسيتها لا يفهمها الشعب ولا يعرفها . وأخاف أن يحتاجوا بعد أيام إلى ترجمان على وحدة اللغة والجنسية والوطنية والمدنية ، وأصبح الناس ينظرون إليهم كأجانب — وحق لهم — وأصبحوا هم ينظرون إلى الناس كأميين ومنحطين فى العقل والثقافة والحضارة . وهكذا تتسع الهوة بين الطبقة المثقفة ودهماء الناس ، وليس ذلك فى مصلحة أحد منهم ، ولا تنهض أمة ولا تعيش على مثل هذه الحال من الفرقة والانفصال . وبكثرة اختلاط الطلبة بالشعب فى طريق الدعوة الدينية والتعليمية والإصلاحية ، وبكثرة ترددهم إلى القرى والضواحى والمدن عصابات وجماعات بشكل منظم وتحت إشراف الأساتذة ، تنشأ فى الطلبة روح الدين والجهاد والكفاح فى سبيل الحياة ، ويتعودون على الغلظة والشدة فى الحياة ، وتنشأ فيهم كذلك روح الأخوة الصادقة والمحبة المخلصة وروح الخدمة والإيثار ، ويعرف بعضهم بعضاً ويخدم بعضهم بعضاً ، ويعرفون الحياة العامة وحياة القرى والبادية ، ويعرف الطلبة الحقل الذى سيعملون فيه ، ويحب أهل البلاد دعاتهم ومرشديهم ومعلميهم الذين سيساعدونهم ويأخذون بأيديهم إلى غير ذلك من الفوائد التى لا تعرف إلا بالاختبار والتجربة .

وكلمة وجيزة عن التربية العسكرية والرياضة التى أهملها التعليم والتربية فى بلادنا حتى نشأ شباب متخنث رقيع مائع لا صبر عندهم ولا جلد ولا تماسك ولا ثبات ولا غلظة ولا قوة ، وقد انحطت الشعوب الإسلامية فى العهد الأخير فى فروسيتها وأجسامها انحطاطا مفزعا يهدد بخطر عظيم ، وقد قلدنا الغربيين — أو حاولنا أن نقلدهم — فى كل شىء إلا فى الاهتمام بالجسم والرياضة البدنية وتربية الفروسية والبطولة . فعلى رجال المعارف فى البلاد الإسلامية أن يعيروا التدريب العسكرى والرياضة البدنية قسطاً لائقاً من عنايتهم واهتمامهم ، وتوجيه المدارس والكليات إلى الاعتناء بهذا الشأن حتى ينشأ جيل متوفر العلم سليم العقل قوى الجسم قوى الإيمان ، وهو الذى يستطيع وحده أن يؤدى رسالة الإسلام والعلم والفضيلة ، ويشق طريقه فى الأشواك والأخطار ، فالحياة ليست روضة من الرياض ولا نوعاً من العبث ؛ إنما هى جد وكفاح لا يثبت فيه إلا الشديد القوى .

ولكن كل ما قلنا فى التعليم والتربية يتوقف نجاحه على وجود معلمين يؤمنون بهذه المبادىء والعقائد والغايات ويخلصون لها كل الإخلاص ، ويدعون إليها بإيمان وحكمة وتكون حياتهم خير مثال لما يدعون إليه ، ووجود معلم يعارض هذا النظام بفكره وعمله أو هو غير مؤمن به غير مخلص له كوجود لوحة نخرة فى سفينة فى عرض البحر ، ومعول هدام فى بناء شامخ ، ولا ينجح نظام تعليمى ولا يؤتى أكله مهما كان كاملا ومحكما إذا كان المعلمون مذبذبين متناقضى الفكر لا تتفق حياتهم مع رسالة الدين والعلم .

إن مسألة اختيار المعلمين ليست بسيطة سهلة كما يظن كثير من رجال المعارف إذ ليس أساسها العلم والمقدرة التعليمية والمؤهلات العلمية فحسب ؛ بل يجب أن تكون للسيرة والخلق والمبدأ والعقيدة المكانة الأولى والأهمية الكبرى فى اختيار المعلم ، ويجب أن تكون هذه العقيدة المتغلغلة فى الأحشاء قد ملكت عليه فكره ومشاعره ، وجعلت منه داعية لا يمل ولا يكل ومؤمنا لا يرتاب ولا يتشكك ؛ وذلك مثل المعلم الكامل الذى يسعد به نظام التعليم ويؤدى مهمته بنجاح وسهولة .

أما بعد فإنى لا أعرف أمانة أكبر مسئولية وأشد خطراً وأعمق أثراً فى مستقبل الأمة وحياتها من المعارف ؛ فزلة من زلاتها قد تردى أمة بأسرها فى الهاوية ، وقد تؤدى بها إلى الانحلال والتفسخ والفوضى فى الأخلاق والاجتماع والسياسة والتعليم ، وإلى اللادينية والتمرد على الله فى النهاية . ولكنها المعارف إذا استقامت أمكنها وحدها أن توجه العقول والنفوس توجيها صالحاً ، وتنشىء الأمة نشأة جديدة وتبنى لها مستقبلا زاهراً . وليس من الشرف والرجولة الفرار من هذه المسئولية ؛ بل الشرف والرجولة وعلو الهمة الاضطلاع بهذا العبء الذى ألقته الأمة على كاهلها والمساهمة فى نهضة الأمة بالقسط الأكبر ، بل وضع أساسها الذى سيقوم عليه بناؤها الجديد .

الرحالون المسلمون

للأستاذ أحمد مظهر العظمة

مفتش الدولة ورئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي بدمشق

مما يفخر به المعجبون بالغرب الرحلات التاريخية والعلمية ، وإنها لفخر حقاً ، ولكن المسلمين كانوا أسبق إليها أيام أن كانوا بأحكام دينهم عاملين .

وقد ساعد الإسلامَ على ذلك أن العرب بحكم بيئتهم ميالون إلى التنقل ، وقد كانت لقريش رحلة الشتاء والصيف طلباً للتجارة . وقد حث الإسلام المسلمين على الضرب فى الأرض فاتحين ومعلمين هادين ؛ فكثرت الرحلات العلمية وأثمرت الثمرات الطيبة اليانعة .

١ — فكان أهل (الحديث يرحلون فى طلب الأثر ويقطعون ظهور الإبل إلى المرامى البعيدة ، وإلى كل شرق وصقع يعلمون أن فيه عن مصادر الحديث أحدا) [١].

روى أحمد أن جابر بن عبد الله الأنصارى بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهنى حديث سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيراً ثم شدّ رحله وسار إليه شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه .

وكان مسروق يرحل فى حرف ، وأبو سعيد كذلك [٢] .

و (قام البخارى برحلة طويلة (سنة ٢١٠) فى طلب الحديث ، فزار خراسان والعراق ومصر والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ) [٣] .

٢ — ثم تبعهم أهل اللغة (يطلبون جفاة الأعراب . . . ويأخذون عن القبائل التى بعدت عن أطراف الجزيرة وبقيت فى سرة البادية أو فاضت حولها (واستمروا يرحلون إلى أواخر القرن الرابع) [٤] .

٣ — وكانت الرحلات العلمية وغيرها من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق كرحلة ابن جبير الأندلسى (المتوفى ٦١٤) .

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ص ٣٤٢

(٢) جامع بيان العلم للقرطبى ص ٩٤

(٣) الأعلام للزركلى ٣ ص ٨٦٤ عن تذكرة الحفاظ ٢ ـ ٣

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣٤٣ و ٣٤٥

وقد دفع الاستطلاع كثيراً من البحاثين ، فطافوا فى أرجاء العالم لمجرد الوقوف على شئون شعوبه وأحوالهم ودراستها : منهم العلامة المسعودى (المتوفى ٣٤٦) صاحب كتاب مروج الذهب ، الذى ساح فى بلاد فارس والهند والصين ، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين .

ومنهم الفيلسوف الفلكى البيرونى (ت ٤٤٠) الذى توغل فى الهند وترك لنا كتابه القيم تاريخ الهند .

ومنهم أبناء العم الثمانية (فى القرن الرابع على الأغلب) الذين خرجوا من لشبونه (فأنشأوا مركباً وتزودوا فيه ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه ، وهم يسمون المغررين — أو المغربين —)[١] .

٤ — وكانت البعثات الرسمية لأسباب علمية ودينية وسياسية ، كالبعثة التى أوفدها المأمون إلى ملك الروم لطلب الكتب[٢] .

وكإرسال الخليفة العباسى المنتصر عام ٣٠٩ ابن فضلان إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر الفولغا للدعوة إلى الإسلام ، وكالبعثة التى أرسلها الخليفة الواثق إلى سد يأجوج ومأجوج ، وكإرسال سلطان مراكش ابن بطوطة (ت ٨٨٩) إلى السودان .

ولا يفوتنا التذكير بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله سبق إلى مثل هذه البعوث . وفى سيرة ابن إسحاق أنه عليه الصلاة والسلام أرسل مصعباً إلى المدينة وأمره أن يقرىء القرآن القوم الذين بايعوه ، ويفهمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، وكان يسمى المقرىء بالمدينة[٣] .

وفى صحيح البخارى أن يزيد بن أبى سفيان كتب إلى عمر : قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذاً ، وعبادة ، وأبا الدرداء .

ولعل لنا عودة إلى هذا البحث نذكر بها من أنباء بعض الرحالين .

(١) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ٨ وتفصيل أبناء العم ص ٣٦٧ نقلا عن الإدريسى طبعة درمرزى ص ١٨٤

(٢) الفهرست لابن النديم ٣٣٤

(٣) التراتيب الإدارية لسيدى عبد الحى الكتانى ص ٤٢

مع العارفين

عتبة الغـــلام

لم يكن غلاما حين مات ، ولا حين أطلق عليه هذا اللقب ، ولعله كان قد جاوز الثلاثين حين لقى ربه ، ولكنهم أعظموا قدمه فى جهاد نفسه وعبادة ربه إذ كانت له همة لاتنفك عن طلب المثل العليا فلا يراه الرائى إلا مشمراً لغايته ، أو سابقاً فى مضماره شأن غلمان السباق والرهان فى تلك الأيام الخالية ، فسموه الغلام ؛ سئل رباح القيسى : يا أبا المهاجر : لأى شيء سميتم عتبة « الغلام » ؟ فقال : كان نصفاً فى الرجال ، ولكنا كنا نسميه « الغلام » لأنه كان فى العبادة غلام رهان . .

استشهد عتبة وهو يغزو فى سبيل الله بالمصيصة من شمال الشام ، فاجتمع نفر من أصحابه بالبصرة موطنه الأصلى وقالوا : لقد لج بنا الشوق إلى عتبة ، فتعالوا نجلس إلى أم عطاء جارته الصالحة فهى أعرف بحاله ، لعلها تحدثنا عنه حديثاً ينهض عزمنا ويستحث خطونا إلى الله ، ويحيينا معه ساعة فى ملكوت السموات . . !

قالت أم عطاء : رحم الله عتبة ، والله ما كنت آبه لشأنه أول الأمر لشدة ما كان يخفى من حاله ، ولقد كان جاراً لنا فلعل نسمة من خلق الله لم تكن أهون على منه ، و . . . .

قال أحمد بن زهير المروزى من طرف المجلس : يرحمه الله يا أم عطاء !! والله ما كان أحد منا إلا ويتمنى أن يكون له فى نفوس الناس قدر ومنزلة إلا عتبة فإنه كان يرى ابتغاء المنازل عند الناس هو السقوط من عين الله . . ولقد كان يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه ، كما يفرح أحدنا بإقبال الناس عليه بالكرامة . . ولقد ركبنا مرة فى سفينة فاضطربت بنا بعض الشيء وجعلت تميل وتستوى ، فأراد الملاح أن يعدل جلوسنا فلم يجد أهون فى عينه من عتبة ، فدفع فى جنبه وقال : استو ياهذا بإزاء من بجوارك !! قال ابن زهير : فوالله لقد رأيت السرور يشرق فى وجه عتبة ، وسمعت غمغمة يسيرة تتحرك بها شفتاه ، فأدنيت أذنى منه فإذا به يقول : الحمد لله على أن لم ير فيهم أحقر فى عينيه منى . .

قالت أم عطاء : وهذا شأن الأتقياء الأخفياء : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . . ولم أكن أقل جهلا بهذا التقى الخفى من الملاح الذى ضربه فى جنبه ، ولقد كنت إذا أفطرت من صيامى قلت : اللهم اسقنى من حوض النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فرأيت فيما يرى النائم ذات ليلة قائلا يقول لى : يا أم عطاء ، إذا سألت الله أن يسقيك من حوض النبى صلى الله عليه وسلم فسليه أن يسقيك من حوض التقى الخفى فإن له عند الله لزلفى . . قلت : ويحك ومن يكون ذلك ؟ قال : جارك الأدنى ! ! قلت : ويحك لا أفهم ما تقول ! ! قال : عتبة بن أبان ابن ثعلب ! ! فانتبهت من نومى ، وإنى لدهشة لما قال .

واسترسلت أم عطاء تقول : فغدوت إلى بيته ، وانتحلت علة أدخل بها على مولاته فلما رآنى قال : يا أم عطاء . . لا تصدقى ما يقال لك فى أضغاث الأحلام فإنه قد يكون من الفتن ! ! .

فأخذت القوم هزة مالوا بها فى المجلس كما تميل أطراف الأشجار فى اليوم العاصف .

واستمرت أم عطاء تقول : وتوثقت صلات الود بينى وبينه . وكان يأخذ دقيقه فيبله فى الماء فيعجنه ويضعه فى الشمس حتى يجف ، فإذا كان الليل جاء فأخذه وأكل منه لقما ، ثم يأخذ الكوز ، فيغرف من حُب (١) كان فى الشمس نهاره ، فقلت ياعتبة : لو أعطيتنى دقيقك خبزته لك وبردت لك الماء أو أمرت مولاتك فصنعت لك ؟ فقال : يا أم عطاء ، الأمر أعجل من ذلك . . كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع ، حتى يهيأ فى الدار الآخرة الشواء والطعام الطيب .. وكان يصوم الدهر ، و . .

قال سلم العباداني : يرحمه الله أيها الرفقة ! لقد كان شوقه إلى دار الخلود يكاد يذيبه ولهاً بها . ولقد قدِمَ علينا مرة ومعه عبد الواحد بن زيد وصاحبان آخران ، فنزلوا على الساحل ، فهيأت لهم طعاما ذات ليلة ودعوتهم إليه فجاءوا ، فلما وضع بين أيديهم ، إذا غلام على ساحل البحر يرفع صوته بقول القائل :

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غِبُّها غير نافع

فانتفض عتبة انتفاضة سقط على أثرها مغشياً عليه . . وبكى القوم لغشيته ، واشتغلنا به ، ورفعنا الطعام ، وماذاقوا والله منه لقمة ! !

قال عبد الواحد بن زيد : إنى لأذكر تلك التى تذكر يا سلم ، وأذكر أنى صنعت

(١) الحب : حب الماء هو ما يسمى عندنا (الزير) .

طعاماً لنفر من إخوانى وكان فيهم عتبة ، فأكل القوم إلا عتبة فإنه قام يخدمهم ، فلما فرغ القوم سأله أحدهم فى ذلك ، فأجاب : احتفائى بخدمتكم أهنأ إلىّ من الطعام ، وإنى ذكرت موائد أهل الجنة والخدم قيام على رءوسهم ، فأحببت أن تكون مائدتنا على مثالها .

قال عبد الواحد : فوالله لقد وقع فى نفسى كلامه موقعاً لم أجد معه إلا أن أنذرَ على نفس لله ألا آكل إلا دون الشبع ، ولا أشرب إلا أقل من الرى . .

قالت أم عطاء : لله ما ترك عتبة من شهوات نفسه !! لقد نازعته نفسه مرة إلى اللحم فقال لها : اندفعى عنى إلى قابل ، فما زال يدافعها سنة بعد سنة حتى أخذ دانقاً ونصفاً وأتى صديقاً له خبازاً ، فقال : يا أخى إن نفسى تنازعنى لحماً منذ كذا ، وقد استحييت منها كم أعدها وأخلفها ! خُذْ لِى رغيفين وقطعة من اللحم بهذا الدانق والنصف ، فلما أتاه به إذا هو بصبى يمشى فى الطريق ، فأسرع إليه وقال له : ألست يا غلام فلان ابن فلان ؟ وقد مات أبوك ؟ قال : بلى . .

قالت أم عطاء : فجعل عتبة يبكى ويمسح رأس الصبى ، وقال : قرة عينى من الدنيا أن تصير شهوة نفسى فى بطن هذا اليتيم ، فناوله ما كان معه ثم قرأ « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا » .

قال محمد بن مستور : رحم الله عتبة ، والله لقد كانت آيات الزهد تنير فى قلبه مثل المصابيح وما أحسب إلا أنها بهذا النور أعانته على جهاد نفسه ، وإنى لأذكر أنه وفد علينا يوماً ، فقلت لأصحابى : اشتروا لحماً بدرهم واطبخوه سكباجا حتى يتعشى به عتبة ، فلما صلى العشاء فقدناه ، فطلبناه فوجدناه قد أوى إلى جنب خال وأمامه سويقُ دقيق قد جعله فى وعاء له وقد صب عليه ماء ، وهو يأكل وعيناه تذرفان ، فقلت له : سبحان الله ، إخوانك قد صنعوا لك سكباجا ! فقال : هذا يكفينى . إنى أخاف أن يقال لى يوم القيامة « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

قالت أم عطاء : هو ما تقول يا ابن مستور ، لقد كانت آيات الزهد تزهر فى قلبه مثل المصابيح حتى أنارت له كل شىء . . أنارت له الدنيا فلم يكن قدرها لديه إلا أن دعا ربه : اللهم منّ على بصوت حزين ودمع غزير وغذاء من غير تكلف . . وأنارت له الآخرة فكان قدرها لديه أن دعا ربه : « اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع » . . فياليت من يملأون حواصلهم بأموال الضعفاء ولحوم اليتامى يعتبرون بسيرة

ذلك الصديق الشهيد ، الذى وهب من نفسه كل شىء ، ووهب لحمه أخيراً لحواصل الطير وبطون السباع مهراً للشهادة فى سبيل الله ! !

وصمتت أم عطاء لحظة ومضت تقول : لقد جاء فى غداة باردة وما فى البصرة كلها إلا من أوى إلى فراش يدفئـه أو موقد يصطلى بجذوته ، فقال : الوداع يا أم عطاء ! لقد أزمعت الرحيل إلى الشام غازياً فى سبيل الله ! ! قلت : يعز على فراقك يا عتبة ، فلا أوحش الله منك ،

فقال : بل قد يطول الفراق ، وما أحسبنا نلتقى .

وهنا اختنقت أم عطاء بالبكاء ، فسكتت لحظة كفكفت فيها من الدمع ، ثم عادت تقول : لله تلك الأرواح الطاهرة والنفوس المشرقة ، لقد صفا طبع عتبة حتى كان أضوأ من وجه المرآة ، فكان لا يخطر بنفسه الخاطر من أمر الله فى لحظة من نهار ، إلا تراءى سره فيه ، وما كانت البشرى تنزل إليه فى رؤية من الرؤى إلا جاءت كفلق الصبح . لقد قال لى : سيطول الفراق يا أم عطاء ، وما أحسبنا نلتقى فى هذه الدار ! ! هكذا أُوريت تلك الليلة ، وما أحسب إلا أن الله قد أجاب ما كنت أدعوه به : اللهم احشر عتبة فى حواصل الطير وبطون السباع ! ومضى يقول : أرأيتِ ذلك المكان فى دارى ، الذى أتعبد فيه ؟ ! هذا مفتاحه فاجعليه معك لا يفتحه أحد ، فإذا بلغكم منعاى فافتحوه ، ففيه وصيتى .

ولما بلغت أم عطاء هذا الحد من الكلام أخذها ما يشبه الرعدة ، وبكت وهى تواصل حديثها قائلة : لله تلك النسمة الزكية ، ما أشد ما كانت تذكرنا الدار الآخرة حتى لكنت أكاد أسمع صيحات الفزع تطلقها نفسى بين جنبى من هول ما كانت ترى فى كلامه من صور القيامة . . قال لى مرة : لولا ما نهينا عنـه من تمنى الموت لتمنيته ، لى فيه خلتان حسنتان : الراحة من عشرة الفجار ، ورجاء مجاورة الأبرار . . ثم بكى وقال : أستغفر الله ، وما يؤمننى أن يقرن بينى وبين الشيطان فى سلسلة واحدة من حديد ، ثم يقذف بى فى النار ؟ فما كدت أسمع كلمته حتى خلع الهول قلبى . . وكنت أحسب ذلك هو كل جهد عتبة معنا ومع نفسه ، ولكن هيهات لسابق المضمار أن يقف بحاله مع نفسه عند ما يقف مع الناس .

لقد جاء الناعى بنبأ استشهاده واسترجعنا ما شاء الله أن نسترجع ، ثم قمنا إلى مكان عبادته لنرى وصيته التى وصى بها ، فإذا المكان ليس فيه إلا قبر محفور . . . وسلسلة ذرعها

سبعون ذراعا . . وشهقت أم عطاء وأجهشت بالبكاء وأجهش القوم معها فلم يُر أكثر بكاء لموعظة من ذلك اليوم ...

وكانت الشمس قد انحدرت للمغيب فلم يعد منها إلا بقية صفراء على رؤوس الأشجار ، فجاءت جارية تؤذنها أن الخل الذى اعتادت أن تفطر به من صيامها مع كسر الخبز قد نفد ، فإن لم يكن لك حاجة إلى وضوء المغرب مضيت فاشتريت خلا ، فقالت وهى شارقة بالدمع : بل قربى لى الوَضوء فإنه لا أرب لى فيما تشغلين به نفسك ، وفى الماء القراح غنية للصائم إذا أراد أن يغذ المسير إلى أحبابه ! !

وتفرق الجمع ليستعدوا لصلاة المغرب وهم يشفقون أن يتصدع فؤادها لما هاج به من الوجد .

***



أخلاقهم نورهم . .

من الرجال المصابيح الذين همو كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم من أى ناحية أقبلت تنظر فى أخلاقهم سطعوا

على رماد فلسطين !

اللاجئون

« بين غضب الطبيعة وغدر الإنسان . . . »

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

بكَى عليَّ الصدَى ، واللَّحْنُ ، والوتَرُ ... ولم أزَلْ لِعـذاب الشِّـعْرِ أنْتَظِرُ !

أوْمَتْ إليَّ سواقيه . . فقلت لها : ... مات الربيعُ ، ومات العطرُ والزهرُ

دُورِي على نَوْحك المَهْجور فى أفُقٍ ... ناح الترابُ عليه ، واشتكَى الحجَرُ

لا ترْقُبي عائداً بالنَّاى . . أو دنِفاً ... تُعْطيك بعضَ الهوَى مِن شَجْوه الذِّكَرُ

ولا تَظُنِّي صـلاةَ الوَحْي آتيةً ... إنَّ المُصَلِّينَ للإلهام قد عَبَرُوا . .

إنَّا غَرِيبانِ . . ساق الظلْمُ أدمُعَنا ... إلى فِجاجٍ بها يَسْتصرخُ القدَرُ

فى رِحْـلةٍ لا تعِى الأيامُ وجْهتَها ... ولا يُتاحُ لها حِلٌّ ، ولا سَفَرُ

ولا ديارٌ ، ولا أهلٌ ، ولا سكَنٌ ... ولا حياةٌ ، ولا عيشٌ ، ولا عُمُرُ

كأنَّنَا فى خِضَمِّ الرِّيح عاصِيَةً ... من الغصون رَمَى آجالَها الشجَرُ . .

تلفَّتِّي . . هاهُمُ فى الأرض إخْوَتُنا ... شعْبٌ بِرُمَّتِهِ فى العُرْيِ يحْتضَرُ !

كانُوا بأوطانِهمْ كالنَّاس . . وانْتبهُوا ... فما هُمُ مِنْ وُجودِ النَّاسِ إنْ ذُكِرُوا

مشَرَّدُون . . بلا تِيهٍ ! فلو طلبُوا ... تجَدُّدَ التِّيهِ فى الآفاق ما قدَرُوا . .

يَلْقَى الشَّرِيدُ فِجاجَ الأرض واسعةً ... لكنَّهم بمَدَى أنفاسِهِمْ حُشِرُوا !

فى خَيْمةٍ من نسيج الوهم ، لفَّقَها ... ضميرُ باغٍ على الإسلام يأْتَمِرُ

أوْهَى ، وأوْهَنُ خيْطاً من سياستِه ... لوْ مَسَّها الضوْءُ لانْقدَّتْ بها السُّتُرُ

تَعْدو الرِّياحُ بها نشوَى مُقَهْقِهَةً ... كأنَّها بشُقُوق الرَّمل تنحدرُ

أو أنَّها حين تَذْرُوها سنا بِكُها ... أضغاثُ شيءٍ تلاشَى ، ما له أثرُ

تهتزُّ إنْ ذاقت الأحلامَ صَفْحتَها ... بِنَسْمةٍ بظلالِ الخُلْدِ تأتزِرُ

وَتُنْشِبُ الذعرَ والأوتادَ هاربةً ... فى صدرِ ساكِنِها ، إن زارَها المطَرُ . . .

فكيف لاقتْ زئيرَ السَّيْل ! كيف غدتْ ... وَوَبْلُه كنِبالِ الموتِ يَنْهمِرُ !

وغيمُه لم يدعْ فى الدهر ثاكلةً ... أبْقَى لها دمعةً للثُّكْلِ تُدَّخَرُ

غاضتْ دموعُهمُ مِن طول ما ذرَفُوا ... فجاء يَذْرِفُ عنهم كلَّ ما ستَرُوا . .

وينفخُ الصُّورَ مِن بُوقٍ ، يَصُبُّ به ... هَوْلَ الهَلاكِ ، فلا يُبْقِى ولا يَذَرُ . .

لعلَّهُ يُوقظُ النُّوَّامَ فى أُمَمٍ ... للشَّرقِ ، غطَّ بها الإعياءُ والخَدَرُ !

لعلَّهُ الصيحةُ الكبرَى ، لِمَنْ نُهِكتْ ... شعائرُ الله ، وهْو الصَّامتُ الحَذِرُ !

لعلَّهُ السَّوْطُ ! والأقدار ضاربةٌ ... هذا الرَّميمَ الّذى لمْ تَحْوِهِ الحُفَرُ !

لعلَّهُ غضبُ الجبَّار ، فاض به ... مقتُ السماء على قومٍ بنا فَجَرُوا !

لعلَّهُ أدبٌ عاتٍ ، لمَنْ ذهبتْ ... أهواؤُهم بِسِياجِ الدِّين تَستتِرُ !

لعلَّهُ عزَّةٌ ، جاءتْ مُعاتِبةً ... ذلاًّ تكاد له الأعناق تنكسِرُ !

لعلَّهُ غضبةُ الرَّحمن . أنَّ لنا ... دَرْبًا تعالت به الصَّيْحاتُ والنُّذُرُ !

سِرْنا بعيداً . . وحِدْنا عنه فاختلطَتْ ... بنا الدُّرُوبُ ، وَصُبَّتْ فوقنا الغِيَرُ . . .

يا مَنْ لِقَوْمٍ على الأوحال يَنْهشُهم ... غُولُ الشِّتاء بريحٍ فَجْرُها عَكِرُ

ملعونةُ اللَّمسِ مَنْ مسَّتْه راحتُها ... عضَّتْه أفعَى سرى من نابها الخطَرُ

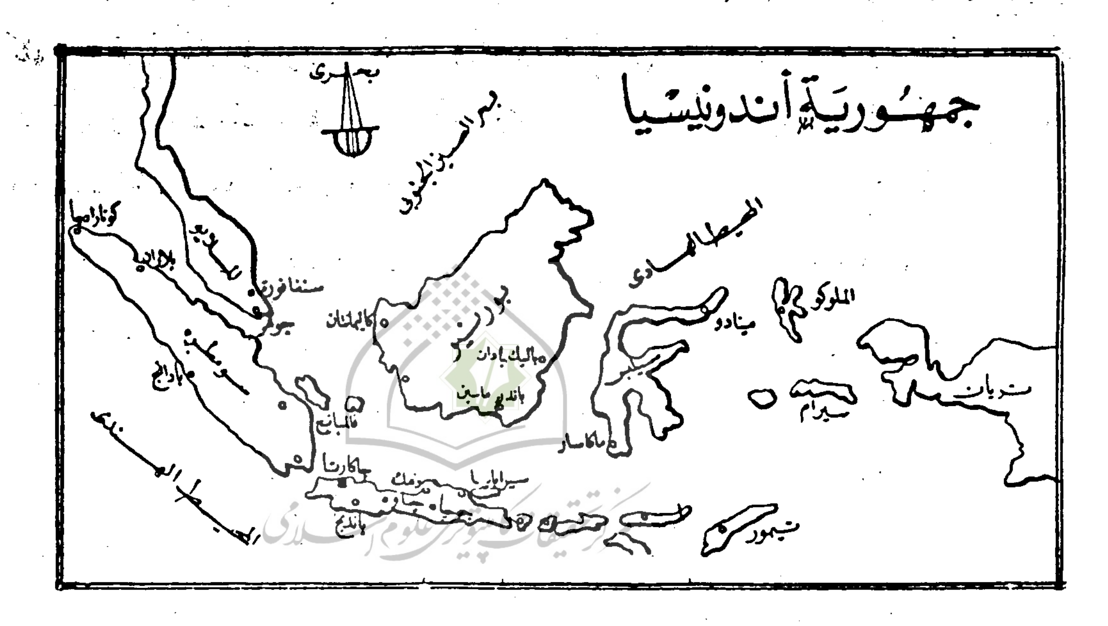
إنْ لم تُذِقْه الردى سُمًّا . . فرحمتُها ... أنْ تبذُرَ السُّلَّ فيه ثم تَنْحَسِرُ

كانوا عُراةً ! فغطَّى الثلجُ أعظُمَهم ... والبَرْدُ خفَّ لهم بالموْت يعتذِرُ . .

وكُبـكِبُوا فى مَخاضاتٍ ، يُشَلُّ بهـا خطْوُ الرِّياح ، وتَنْمى نارها سَـقَرُ !
ما بين طفل تمدُّ الرَّاحَ نظرتهُ وأمُّه فى مَطاوى النّزْع تَنفَطِرُ
وغادَةٍ تمهل الأقدارَ فِتْنَتُها .. فى بَغْتَةِ السَّيْل لم يُدْرِكْ لها خَبَرُ
طارتْ .. وعادتْ .. وصارت فى مَفازِعها حمامةً فى مَدار الصَّيْد تَنْسَحِرُ ..
وطيْفِ عُرْجُون شيْخٍ فى تهارُبِهِ مع العصَا ، كان طيْفًا ثُمَّ يَنْدَثِرُ !
أُسـطورةٌ تُخْجِل الدنيا حكايَتُها بلْ أُمّةٌ بيـد الطَّاغين تَنْتَحِرُ
بئسَتْ حضَارتُـكمْ ، فى كل ما نَزَلَتْ فـكلُّ ما تَبْتَغيه لِلْخَنَا صُـوَرُ
بئسَتْ سياستكمْ ، فى كلّ ما نهجَتْ فـكلُّ ما تدَّعيـهِ كاذبٌ أشِرُ
هذا السَّلامُ الّذى نادَت معابدكمْ .. ؟ أم تلك مَجْزَرَةٌ يَخْزَى لها الْبَشَرُ !! ..

اندونيسيا المسلمة

مساحتها : لعلك تعجب إذ تعلم أن أندونيسيا هذه التي كانت مستعمرة هولندية إلى سنة ١٩٤٥ تبلغ مساحتها قدر مساحة أوروبا بأجمعها، ولكن هذه هي الحقيقة الواقعة. ويبلغ عدد جزر الأرخبيل الأندونيسي أربعة آلاف جزيرة أهمها : سومطرا ، وجاوا وكاليمنتان « بورنيو » ، تريان « غنيا الجديدة »



عدد سكانها : أما عدد سكانها فيبلغ : (٧٢ مليونا) منهم ٩٥ ٪ مسلمون ٥ ٪ مسيحيون وبوذيون .

لغتها : اللغة الرسمية بها هي اللغة الأندونيسية ، واللغة العربية منتشرة تؤدى بها الصلاة ويقرأ القرآن بها وتخطب الجمعة ثم تترجم إلى اللغة الأندونيسية .

مؤسساتها الدينية والسياسية :

١ — مجلس شورى مسلمى أندونيسيا : وقد تألف بقرار من المؤتمر الذى حضره مندوبو جميع الهيئات الإسلامية بعد استقلال أندونيسيا سنة ١٩٤٥ وأهم أهدافه :

(ا) تأييد سياسة الجمهورية الأندونيسية والعمل على إعزاز الدين الإسلامى

(ب) تحقيق مقاصد البلاد فى حكمها وسياستها وتأليف جيش المتطوعين الشعبى « حزب الله » .

(ح) تنظيم حركة الشباب المسلم الأندونيسى وتكوين منظمة خاصة به ، ويعتبر هذا الحزب ويسمونه « ماشومى » الحزب السياسى الأول . ومنه نصف رجال الوزارة الحالية ورئيسها .

٢ — حزب دار الإسلام : وهو حزب إسلامى ثائر تكون سنة ١٩٢٨ إثر هدنة رانفيل التى تم فيها الاتفاق بين الهولنديين والجمهوريين على سحب القوات الجمهورية من جاوا الغربية ، فقام رجال دار الإسلام بزعامة « كارتو صويريو » يدافعون عن هذه المنطقة ويعلنون قيام جماعتهم لتطهيرها من الكفار المعتدين وإقامة حكم الله فى أندونيسيا كلها . ولهم أنصار مؤمنون بدعوتهم فى جاوا الوسطى وطريقتهم الاعتصام بالجبال والتنظيم السرى والجهاد المسلح فى سبيل الله ، وهم يتهمون الحكومة باتجاهها غير الإسلامى ، وتتهمهم الحكومة بالتهور والعنف .

٣ — شركة إسلام : وهى جمعية إسلامية كبرى أنشئت سنة ١٩١٢ وكان هدفها الأول تعاون المسلمين فما بينهم اقتصاديا ، ثم تحولت إلى حزب سياسى يرمى إلى غايات دينية واجتماعية . وبدأ يضعف بعد سنة ١٩١٩ بسبب الانقسامات الداخلية .

٤ — الجمعية المحمدية : تأسست سنة ١٩١٢ أيضا ، وهى تدعو الناس لإقامة حياتهم على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ، ولها فرع نسائى يسمى « الجمعية العائشية » ، وتتبعها فرقة للكشافة اسمها « حزب الوطن » وتهتم الجمعية المحمدية بالتعليم إذ لها أكثر من ١٢٥ مدرسة فى سوراكرتا وجاكرتا

٥ — جمعية نهضة العلماء : نشأت سنة ١٩٢٦ وكان عمادها نخبة من علماء الشافعية ، وقد صار لها بفضل جهودهم شأن عظيم .

٦ — الاتحاد الإسلامى : وهو منظمة عظيمة النفوذ

٧ — الحزب الوطنى الأندونيسى : ورئيسه « ويريو » نائب رئيس الوزراء . وهذا الحزب يدعو إلى الوطنية الأندونيسية ، وكان ينتمى إليه الدكتور سوكارنو قبل رياسته للجمهورية والدكتور محمد حتا نائب رئيس الجمهورية .

٨ — الحزب الاشتراكى : ورئيسه الدكتور سوتان شاهرير ، ويدعوا إلى قيام دولة اشتراكية عالمية .

٩ — حزب العمال : ومهمته الدفاع عن حقوق العمال ويتنازع أعضاءه الحزبان الاشتراكى والشيوعى .

١٠ — الحزب الشيوعى : وقد ظهر سنة ١٩٢٦ أثناء الثورة الشيوعية وقد طغى عليه نظام الحزب الاشتراكى .

التعليم فى أندونيسيا :

١ — المدارس الابتدائية منتشرة فى طول البلاد وعرضها

٢ — وبها ١١٩٦ مدرسة ثانوية تتسع لربع مليون طالب .

٣ — وبها أيضاً ١٦ معهداً عالياً لتخريج المتعلمين فى مختلف العلوم والفنون ، كالهندسة والصناعة والتجارة .

٤ — ويوجد بها جامعتان حكوميتان بكامل معداتهما وأساتذتهما ؛ إحداهما فى العاصمة الجديدة « جاكرتا » والأخرى فى العاصمة القديمة « جوكجاكرتا » ، وفى الجامعتين عشرون كلية يحضرها ستة آلاف طالب ، وبها جامعتان أخريان هما : الجامعة الإسلامية بمدينة « صولو » بجاوا الوسطى ، والجامعة الوطنية بالعاصمة .

٥ — وبها مدارس خاصة للبنات يتعلمن فيها : الطهى والغسل والحياكة والتمريض وتربية الأطفال وغيرها مما يتصل بوظيفة المرأة .

أهم حاصلاتها :

الأرز والمطاط والتبغ وجوز الهند والتوابل والشاى والبن . ومن الثروات المعدنية : القصدير والبترول والفحم الحجرى والحديد والذهب . وتعد أندونيسيا أغنى جزر العالم وهى فى مجموعها أغنى من اليابان ؛ ولكن الاستعمار — قاتله الله — عمل على إفقار الشعب الأندونيسى وتجهيله منذ ٣٠٠ سنة حتى تبقى هولندا منعمة بهذه الثروة الهائلة من دون أهلها .

مواصلاتها :

فى داخل الجزر تستخدم القطارات والترام والسيارات والعربات وتأخذ الرحلة من من ميناء « سابانج » إلى ميناء « ماروكى » وهما طرفا أندونيسيا عشرين يوماً فى البحر وتستخدم البواخر والطائرات للاتصال الخارجى وتسيطر عليهما شركتان هولنديتان .

الناحية الصحية :

كانت مهملة بسبب الاستعمار الهولندى فلا يوجد إلا طبيب واحد لكل سبعين ألف ، وسرير واحد فى المستشفيات لكل ألف شخص فى المدن ، أما القرى فلا يوجد بها شىء من ذلك مطلقاً . وقد بدأت النهضة الصحية مع سائر المرافق الاجتماعية منذ الاستقلال

فى أفق العالم الإسلامى

وادى النيل :

. . . اتسعت دائرة نشاط (الجنود المجهولين) فى منطقة القنال ، وأبدوا روائع من البطولة وإنكار الذات أزعجت الإنجليز الذين فهموا بوضوح أنها حوادث شعبية غير مفتعلة تهدد مصالحهم الحقيقية بالخطر ، وأنها بداية أسلوب جديد فى الكفاح لاتغنى معه ألاعيب السياسة . وامتدت هذه الروح الفدائية امتداداً طيباً فى مصر والسودان ، وكان من أروع مظاهرها يقظة شباب الجامعات وإقبالهم على التدريب العسكرى العملى فى معسكرات أقاموها لأنفسهم . وقد أشاعت هذه المعسكرات جواً من معانى الرجولة والكفاح كنا أحوج ما نكون إليه فى شبابنا المثقف ، وكان من آثار روح الجد هذه أن أقبل الطلاب على التطوع والتبرع إقبالا كريماً ؛ فمنهم من تبرع بساعته وخاتمه الجميل ، ومن تبرعت بسوارها . وذلك يبشر بخير كثيرويثبت أن الشعب بخير إذا عرف طريقه الصحيح .
أما الحكومة فلم تخط إلا خطوات وئيدة ؛ فقد سحبت سفيرها من لندن وأصدر مجلس وزرائها قرارا بتعديل قانون السلاح ينتظر الناس نصوصه بلهفة ، كما قررت وضع كتائب التحرير تحت إشرافها ، وهو تصرف يفقد الكتائب معناها الشعبى الحر الذى ولدت به ويجعلها فرقة من قوات الحكومة الرسمية .

وقررت كذلك نقل المكتب الهندسى بلندن إلى وسط أوربا ، وكانت وظيفته التوسط فى الاستيراد الحكومى للمصالح المختلفة فى انجلترا . واستولت الحكومة على نادى الجزيرة باسم المنفعة العامة .
ثم جاءت مقابلة الدكتور صلاح الدين باشا لمستر إيدن ولا يزال أمرها سراً متكتماً ، وكل ما يشاع عنها محض تكهنات صحفية ولم يصدر بشأنها أى بلاغ عن الطريق الرسمى الدبلوماسى . ولا نظن أن وزير خارجية مصر يمكنه أن يغفل الدم المصرى المراق فى القنال ، ولا مشاعر الأمة المشبوبة وإجماعها على مواصلة الكفاح وتحمل تبعاته إلى النهاية ؛ والنهاية هى التحرر حتما لأنه لامصلحة للانجليز فى بقائهم ببلادنا إذا كان ثمن إقامتهم فيها كل يوم قتلى وجرحى من البريطانيين ، ولا أن يغض الطرف عن وحشية القوات الإنجليزية فى القنال وانتهاكهم لكل حرمات مصر فى حوادث مخزية متصلة لم يكن آخرها حادثة تدمير قرية كفر عبده .

وقد تساءل الناس عن موقف (الإخوان المسلمين) من هذه الحوادث وخطتهم إزاءها ، وصرح فضيلة مرشدهم العام الأستاذ (حسن الهضيبى) فى مؤتمر كبير بالإسكندرية أن الإخوان أيدوا الحكومة فى خطوتها بإلغاء المعاهدة وتركوا لها القيادة وانتظروا ما ينجم عن تصرفها حتى لا يكون فى أى عمل من جانبهم ما لايتفق مع خطة الحكومة التى قالت إنها أعدتها ولم تعلنها وحتى لا يكون فى استقلال الإخوان بخطة من جانبهم مظنة تتأولها الحكومة على غير وجهها كما حدث معهم

فى حرب فلسطين ، وذكر فضيلته أنه قال لمعالى وزير الداخلية فى اجتماع الزعماء الخاص بالكتائب إنه ليس لدى الإخوان كتائب ، ولكن لديهم مؤمنون ، كل منهم كتيبة فى ذاته ، وإذا أرادت الحكومة منهم عملا : فلتسلمنى السلاح ولا تسألنى عن أسمائهم وأنا المسئول عنهم ، ولا يجوز أن ينتظر من الإخوان غير ذلك بعد الذى خبروه فى محنتهم ، وما دام فى البلاد بوليس سياسى .

وقال فضيلته : إن الحكومة لم ترد على هذا حتى الآن ، كما قال : إن من مستلزمات الكفاح أن تتطهر البلاد من المباءات الخلقية وأماكن اللهو الرخيص التى تثبط عن الجهاد ، وتجعل المجاهدين يتشككون فى روح الجد فى البلاد .

سوريا :

استيقظت سوريا صباح ٢٩ نوفبر سنة ١٩٥١ على الانقلاب السورى الرابع الذى قام به العقيد أديب الشيشكلى وطوح بوزارة الأستاذ الدكتور معروف الدواليبى بعد ١٢ ساعة من صدور المراسيم بتأليفها ؛ إذ زحفت على دمشق لجر ذلك اليوم قوات اللواء الأول واحتلت المرافق العامة ودور الحكومة ، وأحاطت بالقصر الجمهورى ، واعتقلت أعضاء الوزارة الجديدة قبل أن يذهبوا إلى مكاتبهم ، كما اعتقل كبار نواب حزب الشعب وفتشت مكاتبه ووضعت تحت حراسة الجيش ، كما منع الاتصال الخارجى مع سوريا . وبعد ٤ أيام استقال رئيس الجمهورية فخامة السيد هاشم الأتاسى واستقالت الحكومة من داخل سجن المزه وحل مجلس النواب ، ثم عهد العقيد الشيشكلى إلى العقيد فوزى سلو برئاسة الجمهورية والوزارة ووزارة الحرب وحوله جماعة من الأخصائيين يباشر كل واحد منهم مهام وزارة من الوزارات .

* * *

هذا ما نقلته إلينا الأخبار عن سوريا العزيزة ، ولا شك أن عدم الاستقرار الذى اتسمت به الأحوال فى سوريا خلال السنوات الثلاث الأخيرة مدعاة إلى الأسف الشديد ، فإن الصورة السريعة التى تحملها مثل هذه الأخبار عن سوريا إلى العالم الخارجى تظلم سوريا ظلماً مبيناً فسوريا فى تقدير كل من عرفها أصدق الأقطار العربية عروبة ، وأسلمها خلقاً ، وأوفاها لقضايا العرب جميعاً ، وما الذى تعانيه من فورات إلا مظهراً لعاطفة حارّة تجيش بها صدور السوريين الأعزاء الذين لم يستقروا على جنب منذ مأساة فلسطين بعد أن أدوا واجبهم فى معركتها الأليمة خير أداء ، ولقد رأينا بأعيننا شبابهم يتنافسون على الموت الكريم فى خط النار ، والذى نرجوه لسوريا أن تتهيأ لها أسباب الاستقرار وتجد من أبنائها المجموعة المؤمنة الثابتة التى تصرف هذه الطاقة الفوارة من العاطفة إلى النافع المفيد ، وأن يحفظها من كل شر يراد بها من قريب أو بعيد .

ليبيا :

توّج الأمير إدريس السنوسى ملكا على ليبيا صباح الاثنين ١٢/٢٤ ، وهكذا تولد دولة عربية جديدة فى شمال إفريقيا تتألف من ولايات برقة وطرابلس وفزان . وليبيا هى عبارة عن المساحة الواسعة التى تبتدئ من حدود مصر الغربية وتنتهى عند الحدود التونسية والجزائرية والتى تحد جنوبا بأملاك فرنسا والصحراء الكبرى ، وهى بلاد يسكنها العرب ويدين أهلها الأصليون جميعاً

بدين الإسلام منذ أكثر من عشرة قرون . وقد ظلت دائماً بلاداً واحدة لم ينفصل بعضها عن بعض إلا فترات قصيرة ، ولم يتغلب عليها الأجانب إلا فترات قصيرة أيضاً ، لذلك استمرت أثناءها تناضل حتى استردت وحدتها .

وهذه الوحدة ليست ضرورية من الناحية الإدارية فحسب ، بل هى ضرورة اقتصادية واجتماعية لاسبيل لتجاهلها ، إذ أن البلاد قليلة السكان ، مترامية الأطراف ، فقيرة فى مجموعها ، تتعاون أجزاؤها لتكملة بعضها وتأمين حياتها ، بل كذلك تقتضى مصلحة الأمن والإدارة أن توحد الحكومة فى هذه البلاد الشاسعة . وقد علمت هذه الحقيقة بالتجربة جميع الحكومات التى حكمت طرابلس حتى الأجنبية منها .

وأضحت هذه الرقعة الاستراتيجية الهامة على البحر الأبيض هدفاً استعمارياً مرموقاً ؛ فالمحتل لها إنما يهدد مصر وتونس ويسيطر على الممر المائى بين برقة وكريت ، ومطاراتها تعد مكاناً استراتيجياً هاماً تهدد قواعد الكتلة الشرقية بالقذف الاستراتيجى الجوى ، وتعد قاعدة عسكرية تبادلية لقاعدة قناة السويس ، فما أن فرضت معاهدة الصلح على إيطاليا فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ وتنازلت بمقتضاها عن كل (حقوقها) فى ليبيا حتى مزقتها إلى مناطق ثلاث ، هى : برقة ، وطرابلس ، وفزان .

ولعبت مصر والجامعة العربية دورها فى هذه القضية حتى استطاعت أن تنتزع قراراً أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢١ نوفبر سنة ١٩٤٩ ، بأن ليبيا التى تشمل طرابلس وفزان وبرقة تكون دولة مستقلة ذات سيادة فى تاريخ لايتجاوز أول يناير سنة ١٩٥٢ ، وأن تقبل بمجرد تكوينها كدولة مستقلة عضواً فى هيئة الأمم المتحدة طبقاً للمادة الرابعة من الميثاق .

ويقال إن مشكلة تعيين ولى عهد للملك الجديد فى مدى شهر إلى جانب اتجاه جلالته إلى استبعاد أهله من السلطة التشريعية والتنفيذية حرصاً على مرضاة أهل طرابلس وفزان سيؤدى إلى إحداث هوة بين المملكة السنوسية والطريقة السنوسية،وهذا أمر نخشاه ونشفق منه ونرجو ألا يكون ، وأن يوفق جلالة الملك إدريس إلى تلافى أسبابه حتى لايجد الأعداء الكثيرون ثغرة ينفذون منها إلى الأوضاع فى ليبيا . وعهدنا بالسنوسيين منذ أيام سيدى الشريف أحمد رضى الله عنه وأرضاه أنهم على قلب رجل واحد .

وتواجه المملكة الجديدة مشاكل إدارية ومالية وسياسية متعددة ، نسأل الله أن يعينها على حلها ، وأن يقيها فى ذلك شر المتربصين بها .

مراكش :

قررت الجمعية العمومية تأجيل درج قضية مراكش . وتعتبر القضية بالرغم من ذلك قد زحفت إلى المجال الدولى ، إلا أننا نرجو أن يستفيد إخواننا فى مراكش من مصير قضايانا الأخرى فى هيئة الأمم ؛ فيصرفوا أهم جهودهم إلى الوسائل التى لاتتحطم بغيرها الأغلال .

أخبار متفرقة

● نشرت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف التي تمثل المذاهب الأربعة الشهيرة إفتاءها صباح الأربعاء ٣١ صفر سنة ١٣٧١ هـ والخاص بالموقف الشرعي إزاء المستعمر الإنجليزي : « إن الدين الإسلامي يحرم التعاون مع الإنجليز في أية صورة من صوره سواء كان خاصاً بالمساعدات في مسائل التموين ، أو في القيام بأي عمل إنشائي فيه مصلحة ، أو تمكين ، أو تيسر لهم في الإقامة بالأراضي المصرية ، ومن فعل شيئاً من ذلك بعد معرفته لحكم الدين فهو خائن لدينه ووطنه ، وعقوبته القتل في المذاهب الإسلامية الراجحة » .

● يزداد سوء الحالة بين اللاجئين في غزة بسبب الأمطار الغزيرة والعواصف التي هبت عليها فهدمت بيوتهم المبنية من الطين ، واقتلعت الخيام العتيقة التي كان يسكنها عدد كبير منهم ، فغدا الجميع في حالة من البؤس تنذر بكارثة أليمة . إن كل واحد من هؤلاء لعنة إلهية متحركة حتى يجد طعامه ولباسه ومأواه .

● زار مصر في هذا الشهر السيد عيسى يوسف آلب تكين سكرتير حكومة التركستان الشرقية سابقاً ؛ وهي ذلك الجزء من العالم الإسلامي الذي سيطر عليه الشيوعيون الصينيون والذي يضم ثمانية ملايين مسلم .

والنفوذ الحقيقي في هذه الرقعة المغصوبة في يد القنصل الروسي ؛ فهو المسيطر على الحكم هناك إذ أن قوات روسية تحتل البلاد بجانب القوات الصينية الغازية ، وهم يتخذون تركستان الآن نقطة ارتكاز لتنفيذ خططهم المقبلة .

● نفى جلوب باشا في حديث خاص مع مندوب الوكالة الفرنسية كل ما أشيع حول إقالته ، أو إحالته إلى المعاش ، وذكر أنه سيواصل النهوض بمهام عمله في شرق الأردن .

● احتجت اليمن لدى بريطانيا على أعمالها التي تقوم بها بالقرب من حدود اليمن ببناء منشآت عسكرية عديدة ، والاستيلاء على مساحات من أراضي اليمن .

● تحاول إسرائيل الآن أن تجعل منها ومن تركيا كتلة غير عربية تنضم إلى قيادة الشرق الأوسط منفصلة عن كتلة الدول العربية التي رفضت الانضمام إلى هذه القيادة .

● طلب جلالة الملك طلال من حكومته أن تبرق إلى الملقي باشا في باريس أن يقف مع الحكومات العربية في رفض الانضمام إلى حلف البحر الأبيض المتوسط .